أصول المكاتبات الإنشائيَّة في"صبح الأعشى"
مقاربة نصيَّة تداوليَّة لمراتب خطاب الترسُّل
في ضوء الاتجاهات اللغوية الحديثة

د٠ صفوت علي صالح (*)

المقدِّمة :

المُطالع لكتاب "صبح الأعشى في صناعة الإنشاء" للقلقشندي(١) يستوقفه مدى إدراك العرب القدامى لطرائق تحقُّق الوظيفة التواصليَّة للغة(٢). كما تستوقف

(*) أستاذ علم اللغة المساعد بكلية دار العلوم . جامعة القاهرة (دكتوراه الدولة في علم اللغة التطبيقي من إنجلترا) والخبير بمجمع اللغة العربية بالقاهرة وباتحاد المجامع العلمية العربية.

(١) هو أبو العباس أحمد بن على القلقشندي، وُلد في قَلْقَشَنْدَة (قرب محافظة القليوبية) في مصر عام (٧٥٦هـ، ١٣٥٥م)، وتوفي عام (٨٢١هـ، ١٤١٨م). درَس العلوم الأدبية، والفقهية في الإسكندرية، وأُجيز للتدريس والفتوى على المذهب الشافعي. ثم التحق بديوان الإنشاء في العصر المملوكي عام (٧٩١هـ، ١٣٨٩م)، ثم أصبح رئيسًا للديوان. ومن مؤلفاته: (١) الغيوث الهوامع في شرح جامع المختصرات ومختصرات الجوامع، (٢) شرح لكتاب الحاوي الصغير في الفروع، (٣) حِلية الفضل والكرم في المفاضلة بين السيف والقلم، (٤) شرح على قصيدة "بانت سعاد" لكعب بن زهير، (٥) الكواكب الدريَّة في المناقب البدرية، (٦) صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، (٧) نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب، (٨) قلائد الجمان في التعريف بقبائل عرب الزمان، (٩) ضوء الصبح المسفر وجنى الدوح المثمر. انظر تفصيلا لسيرة أبي العباس القلقشندي: عبد اللطيف حمزة، صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، مطبعة مصر، القاهرة، ١٩٦١، ص: ٣٢ – ٥٤. وانظر كذلك: "، ضمن: أحمد عزت عبد الكريم، أبو العباس القلقشندي وكتابه "صبح الأعشى"، تأليف نخبة من الأساتذة، المكتبة العربية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٧٣ ص: ٨.

(٢) من خلال تحليله (١) للرسائل والمكاتبات المتداولة بين البلاط والدوائر والدواوين السلطانية، وملوك الديار المصرية ونواب السلطنة، والعمال والقضاة ورجال الدولة في مصر والشام، وملوك التتار وإيران وأرمينية، (٢) وكذلك المكاتبات المُرسَلة إلى ملوك المغرب والسودان والروم والترك، وملوك الإفرنج والبابا وقيصر القسطنطينية، (٣) والمكاتبات الواردة إلى البلاط.

المدققَ قدرةُ القلقشندي على استخلاص أصولٍ كليَّة ينبغي للكاتب (بوصفه منتجًا للنص) أن يعتمدها في مكاتباته. وتتضمن هذه الأصول عددًا من الإشارات (أو التبصُّرات) التي تقارب في مضمونها مبادئ المناهج الحديثة في التفكير اللغوي؛ ومنها: الاختيار التعبيري للألفاظ اللائقة، والتناص، وصحة السبك، ووضوح المعنى، وتخطّي التصريح إلى التلويح، وإجمال المقاصد الجليلة في المكاتبات، ومراعاة رتبة المكتوب إليه والمكتوب عنه بما يقتضيه المقام من الألقاب، إلخ.

ومن هنا، يهدف هذا البحث إلى: (١) استقراء جوانب الوظيفة التواصلية للغة في خطاب المراسلات الديوانيَّة؛ (٢) ومقاربة الإشارات النصيَّة والتداوليَّة والخطابيَّة المتضمَّنة في أصول المُكاتبات بالمناهج اللغوية الحديثة؛ (٣) بغرض التحقق الموضوعي من الفرضيات النظرية والمنهجية التي تنادي بها بعض الدراسات الحديثة في الدرس اللغوي العربي . من أنَّ الموروث اللُّغوي (القديم) قد ألمح إلى كثير من المعايير النصيَّة والأبعاد التداوليَّة وإستراتيجيات تحليل الخطاب، وأن العقلية العربية قد أدركت (على نحو منهجي) كيفيَّة عمل اللغة في الحدث التواصلي على نحو يقارب بوضوح التصور الحديث للغة بصفتها نشاطًا تداوليًّا. وانطلاقًا من هذا، يُجيب هذا البحث عن سؤالٍ عام، هو: **كيف يمكن مقاربة الإشارات الدالة على الوظيفة التواصليَّة للغة في أصول المكاتبات في صبح الأعشى بالمناهج الحديثة في التحليل النصيّ والتداولي والخِطابي؟**

ويمكن تقسيم هذا السؤال العام إلى الأسئلة الفرعية الآتية:

(١) كيف أسهم تصور العرب لمفهوم المقاميَّة في تحقيق الوظيفة التواصلية وتحقُّق خصائص النص في المكاتبات الإنشائية . كما اقترحها دي بوجراند؟

(٢) أين يكمن المعنى التداولي في المكاتبات الإنشائية؟ وكيف يمكن مقاربة مبادئ التداولية الاجتماعية فيها بنظرية الملاءمة ومبدأ التعاون لدَى جرايس، وأفعال الكلام وقوتها الإنجازية لدى أوستن وسيرل؟

(٣) ما ملامح التصور العربي لمستويات خطاب الترسُّل قياسًا على تصور فيركلوف؟ وما مبادئ المناهج الحديثة للتحليل النقدي للخطاب في أصول المكاتبات؟

(٤) ما طرائق تدرج الأسلوب المكاتباتي من إفادة المعنى (إفهامًا) إلى كمال الإفادة (تأثيرًا) إلى التحسين والتزيين (وفاءً بحقِّ الصَّنعة)؟

(٥) إلى أيّ مدى يمكن الاحتجاج بهذه الأصول في المكاتبات الإنشائية على ثراء الموروث العربي بإرهاصات المعايير النَّصِّيَّة والأبعاد التداولية والطرائق الخِطابية؟

ومضمون هذه الأسئلة يشكِّل منظور هذا البحث للأصول الكلية التي استخلصها القلقشندي من المكاتبات الإنشائية؛ لتكون دليلا استرشاديًّا لإتقان صنعة الترسُّل (على مستوى إنتاج النصّ)، ولتحقق الوظيفة التواصلية (على مستوى تلقي الخطاب). فالنظرة التحليلية لا تقتصر هنا على المكاتبات باعتبارها نصًّا منثورًا له خصائصه ومكوناته البنائية؛ وإنما تهتم في المقام الأول بما تتضمنه هذه المكاتبات من أبعاد نصية وتداولية وخطابية تشكل القوة الإنجازية للغة بوصفها نشاطًا تواصليًّا . وهي نظرة تتجاوز حدود النصية في السياق اللغوي إلى آفاق التواصليَّة في السياق التداولي والخطابي. وإذا كان معلومًا أن القوة الإنجازية والتواصلية للغة تختلف مستوياتها باختلاف السياق الاجتماعي (بما فيه رتبة المخاطِب والمخاطَب والعلاقة بينهما ونوعية الموضوع)، بما يتحقق لغويًّا في الاختيارات التعبيرية وغيرها من طرائق التعبير . فإن خطاب المراسلات (كما يتمثل هنا في المكاتبات الديوانية) له مستويات أو مراتب، فالمكاتبات الصادرة عن الملوك والسلاطين ومن في منزلتهم (أو المكاتبات الواردة إليهم) تختلف في أصولها عن المكاتبات الصادرة عمَّن دونهم في الرتبة من النواب والأتباع، كما تختلف أصول المكاتبات في التهاني والتهادي والتعازي والإخباريات والاعتذارات

والاستمناحات والأجوبة والأوامر والعهود والاستجاشات وغيرها. ومن هنا جاء هذا البحث حول "مراتب خطاب المراسلات"[(١)].

وتأسيسًا على هذا، فالإجابة عن هذه الأسئلة البحثية تقتضي منهجًا تحليليًّا يعمل على مستويَيْن لغويَّيْن؛ فعلى **المستوى الأدنى** يعمل على تحليل ما تضمنته أصول المكاتبات الديوانية من إشارات إلى أثر المقاميَّة في تشكيل العلاقات النصية، والاختيار التعبيري للألفاظ والعبارات اللائقة، والتدرج الأسلوبي بما يوجب التحسين من سهولة اللفظ، وصحة السبك، ووضوح المعنى، والتناص، والاقتصاد

(١) سبقت الإشارة إلى أن هذا البحث يركز على تحليل المكاتبات الديوانية الصادرة عن ديوان الإنشاء أو الواردة إليه؛ باعتبارها خطابًا وليست مجرد نص (أو نظمٍ منثور). ومن هنا آثرت تسميتها بخطاب المراسلات. وعلة هذه التسمية (أو النظرة التحليلية) أن الخطاب . على تعدد مفاهيمه . هو "جنس أوسع من النص؛ فإذا كان النص يشير إلى مادة لغوية مكتوبة أو منطوقة بالفعل، فإن الخطاب يتسع ليشمل عملية التواصل بما فيها إنتاج النص، واستقباله وفهمه، وسياقه، والخلفيات المعرفية المشتركة بين منتج الخطاب ومتلقيه". وبهذا الاعتبار يكون مفهوم خطاب الترسل أقرب إلى مفهوم الكلام speech "بمعنى الكلام (المنطوق أو المكتوب) الذي يحمل رسالةً ما، موجَّهةً إلى مخاطَب (أو مخاطبين)؛ بغرض التفاعل أو الإفهام أو الإقناع أو تشكيل الانطباع أو تغيير الرأي .. إلخ"؛ لأنه يتسم بالممارسة التطبيقية (الفردية) في التوظيف المقصود للأدوات والاستراتيجيات الخَطابية، وعلى رأسها التعبير اللغوي. في مقابل مفهوم الخطاب Discourse الذي يتسع ليعني "مجموعة القيم أو المبادئ أو المعتقدات أو التوجهات الفكرية والأيديولوجية أو المواقف الاجتماعية والمؤسساتية (المجردة) التي تشكل البنى الكلية للخطاب، وتعكس تصور منتجه (أو متلقيه) للواقع أو للآخر أو للمجتمع، والتي يُعبَّر عنها (أو يُعاد إنتاجها) تصريحًا أو تلميحًا بأدوات خِطابية مختلفة . من بينها التعبير اللغوي". وإذا كان مصطلح "الخطاب" بمفهومه الأول يتسم بالممارسة (الفردية)، فإنه بالمفهوم الثاني يتسم بالمفهوم (الجمعي) المجرَّد، أو بعبارة أخرى: الرؤى والمفاهيم النظرية المجردة التي تشكل المرجعية الفكرية لفرد أو لطائفة من الناس. انظر: صفوت علي صالح، لسانيات المدونة وتطبيقاتها البحثية على اللغة العربية، عالم الكتب، ٢٠١٩، ص: ٧١ – ٧٢.

اللغوي. أما على **المستوى الأعلى**، فيتجاوز التحليلُ البنيةَ النصيةَ إلى تحليل المعنى التداولي والتوظيف الخطابي، من خلال: استنباط البنى الكبرى (المقاصد الجليلة)، وطرائق التَّلطُّف وتعديل القوة الإنجازية للأفعال الكلامية (الكتابية)، ومراتب التأدب في التلقيب مراعاةً لمقام المخاطب، والتخفيف بالعدول عن التصريح إلى التَّلميح في التعبير عن النوازل والملمَّات. أما من حيث المادة، فالإجابة عن هذه الأسئلة البحثية تقتضي تحليلَ أصول المكاتبات(١) التي استخلصها القلقشندي من واقع ممارسته العمليَّة للكتابة الديوانيَّة ممّا كتبه بقلمه من مراسلات، ومن واقع استقصائه وتنقيبه في خزانة المكاتبات الإنشائية والرسمية في الموروث العربي من "محفوظات ديوان الإنشاء من الوثائق والمراسلات السلطانية والدبلوماسية"(٢)، مستضيئًا بما وضعه وأجمله أعلام صنعة الكتابة وصناعة الترسل(٣) من إضاءات وقواعد للإنشاء فيما طرق أبوابه القلقشندي من

(١) وهي عشرة أصول أفرَدَ لها القلقشندي الطرف الأول (في أصول يعتمدها الكاتب في المكاتبات) من الفصل الأول (في مقدمات المكاتبات) من الباب الأول (في أمور كلية في المكاتبات) من المقالة الرابعة (في المكاتبات)، انظر: القلقشندي، صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، دار الكتب المصرية بالقاهرة، ١٩٢٢، ج: ٦، ص ٢٦٣ : ٣٠٣.

(٢) انظر في مصادر صبح الأعشى ومنهج القلقشندي: صبح الأعشى، ج:١، ص: ١٢.

(٣) ومن هؤلاء: ١. ابن فضل الله العمري، في كتابَيْه: "التعريف بالمصطلح الشريف"، و"عرف التعريف"؛ ٢. ابن ناظر الجيش، في كتاب "التثقيف"؛ ٣. علي بن خلف "مواد البيان"؛ ٤. ابن شيت "معالم الكتابة"؛ ٥. العسكري "الأوائل"؛ ٦. ابن حاجب النعمان "ذخيرة الكتاب"؛ ٧. أبو جعفر النحاس "صناعة الكتاب"؛ ٨. ابن مماتي "قوانين الدواوين"؛ ٩. الحميري "الروض المعطار"؛ ١٠. ابن الأثير "عجائب المخلوقات"؛ ١١. ابن عبد ربه "العقد الفريد"؛ ١٢. محمد بن عمر المدائني "القلم والدواة"؛ ١٣. السمعاني "اللباب"؛ ١٤. ابن الأثير "المثل السائر"؛ ١٥. العمري "مسالك الأبصار في ممالك الأمصار"؛ ١٦. شهاب الدين محمود الحلبي "حسن التوسل في صناعة الترسل"؛ ١٧. الحسن ابن محمد الصنعاني "الدر الملتقط في تبيين الغلط" . انظر: في مصادر صبح الأعشى ومنهج القلقشندي، ج:١، ص: ١٢ . ص: ١٥.

المصنفات وأمّات الكتب. ومن هنا تتجلَّى القيمة المعياريَّة لهذه الأصول؛ فهي . من ناحية . إجمالٌ محكَم لما تناثر من طرائق صَنعة الكتابة والترسُّل في المصنَّفات التراثية؛ وتقوم . من ناحية أخرى . على ما يقارب حديثًا المنهجَ القائم على المدونات اللغوية[(١)]، الذي ينطلق من استقراء الاستعمال الواقعي للغة في كم هائل من النصوص الحيَّة التي تقوم دليلًا على اطراد السلوك اللغوي وأنماط البنَى النصيَّة والتداولية والخطابية بما يجسِّد الوظيفة التواصليَّة للغة. ومن ناحية ثالثة، هي أصول (ينبغي) للكاتب أن يعتمدَها ويحذو حذوها في إنشائه؛ فيكون قد بلغَ من الصنعة ما يوفي حقها من حسن اختيار اللفظ، وصحة السبك، ووضوح المعنى، وإجمال المقصد، والمخاطبة بما يقتضيه المقام.

وكتاب صبح الأعشى هو شرحٌ مفصلٌ لمقامَة "الكواكب الدريَّة في المناقب البدريَّة" (نسبة إلى القاضي بدر الدين رئيس ديوان الإنشاء)، وهي مقامة مختصَرة وضعها القلقشندي يُعرِّف فيها بكتابة الإنشاء، ومنزلتها، وما يحتاجه الكاتب من مواد الكتابة. ثم رأى القلقشندي شرحها في موسوعة شاملة (من أربعة عشر مجلدًا) أسماها "صبح الأعشى في صناعة الإنشاء"[(٢)]؛ لتكون تصنيفًا جامعًا لمقاصد الكتابة، وفنونها، ومراتبها، وموادها . على خلاف سابقيه ممن اقتصروا على صناعة الكتابة، أو مصطلحاتها، أو تدوين المكاتبات لتكون معينًا للكتاب

---

(١) "فقد ظهر في الدراسات الغربية ما يُعرف بالمنهج القائم على المدونات اللغوية corpus-based approach ليقدم حلا منهجيًّا لتحليل هذه المستويات المتداخلة؛ فقد مكَّن هذا المنهج من إجراء تحليل كميٍّ استقصائي للظواهر اللغوية في سياقها النصي، يكون أساسًا لتحليل كيفيٍّ يفسر الاستعمال اللغوي في سياقه الاجتماعي الذي أُنتِج فيه." . انظر في تفصيل "المنهج القائم على المدونات اللغوية في مقابل المنهج القائم على الحدس والتخمين". انظر: صفوت علي صالح، لسانيات المدونة، مرجع سابق، ص: ٨٠.

(٢) نُشر كتاب "صبح الأعشى في صناعة الإنشاء" بالمطبعة الأميرية بمصر عام ١٩٠٣، ١٩١٩، وأُعد له كشَّاف وفهارس عام ١٩٧٢م.

الناشئة لمحاكاتها، واحتذائها في الصنعة[١]. ومنهم (كما سبقت الإشارة): علي بن خلف الكاتب "في مواد البيان"، وعلي ابن شيت" في معالم الكتابة ومغانم الإصابة"، وشهاب الدين الحلبي "في حُسن التوسُّل في صناعة الترسُّل"، وغيرهم؛ إلا أن القلقشندي . وإن كان متأخرًا عنهم . قد غربل هذه المصنفات وجمع محصولها في موسوعته بمنهج تعليمي "بيداجوجي" Pedagogy يقوم على الإجمال والتفصيل ثم التمثيل. فصبح الأعشى يتضمن نصائح تعليمية وتوجيهات إرشادية للكُتّاب ومحترفي صنعة الكتابة والترسُّل على غرار "رسالة الكاتب" عبد الحميد الكاتب، و"أدب الكاتب" لابن قتيبة، ورسالة "في علم الكتابة" لأبي حيان التوحيدي. كما أن موسوعة صبح الأعشى "تعتبر سجلا ضخمًا للحياة السياسية والاقتصادية والثقافية والاجتماعية في مصر طوال العصور الوسطى"[٢]. وفي منزلة صبح الأعشى الوثائقية، يقول الأستاذ محمد عبد الله عنان: "وقد سبقنا البحث الغربي كعادته إلى العناية بهذا الأثر النفيس؛ فتُرجِمتْ منه إلى الفرنسية مجموعةٌ هامة من الوثائق الدبلوماسيَّة التي تبودلت بين مصر والدول الإفرنجيَّة، وتُرجمت منه مختارات أخرى إلى الفرنسية والألمانية"[٣]. فالمستشرق الألماني وستنفيلد قد ترجم من صبح الأعشى قطعةً تتصل بجغرافيا مصر ونظمها الإدارية، كما ترجم المستشرق البلجيكي لامنس قطعةً أخرى خاصةً بالرسائل المتبادلة بين حكام الغرب وأمرائهم وبين رجال الدول النصرانية في عهد الأيوبيين

(١) صُبح الأعشى، أبو العباس القلقشندي، المطبعة الأميرية، القاهرة، ١٩٢٠، ج: ١، ص: ٧.

(٢) أحمد عزت عبد الكريم، أبو العباس القلقشندي وكتابه "صبح الأعشى"، مرجع سابق، ص: ٩.

(٣) محمد عبد الله عنان، أبو العباس القلقشندي وكتابه "صبح الأعشى"، ضمن كتاب أبو العباس القلقشندي وكتابه "صبح الأعشى"، تأليف نخبة من الأساتذة، المكتبة العربية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٧٣ ص: ٢١.

والمماليك، أما المستشرق الفرنسي سوفير فقد ترجم من صبح الأعشى قطعةً خاصة بالمكاتبات العربية[1]. وعلاوةً على وضوح أسلوب القلقشندي ودقته في التعبير وإحكام منهجه في العرض والتقسيم إلى أصول وفروع ومطالب ومقاصد؛ يتسم أسلوبه . وهو ما يهمنا هنا . بإيراد الأصل الذي جرت عليه سُنَّة الكتاب ثم إلحاقه بطرائق تصريفه في المكاتبات وتوضيح ما يبرر وجوه استعماله. وفي هذه التصاريف ووجوه الاستعمال ما يبلور تصور العقلية العربية (في المكاتبات الإنشائية) لإنتاج النص وتداولية تلقي الخطاب، وهو مناط المقاربة في هذا البحث على ما سيأتي بيانه وتفصيله.

ويتكون هذا البحث من العناصر الآتية:

(١) مقدمة

(٢) الأصول التي يعتمدها الكاتب في المُكاتبات كما أجملها صبح الأعشى

(٣) قراءة منهجيَّة في أصول المكاتبات الإنشائيَّة

(٤) الأبعاد النصية والتداولية والخطابية في أصول المكاتبات الإنشائيَّة

(١.٤) خصائص النص في خطاب الترسُّل

(٢.٤) معيار المقاميَّة في مراتب خطاب الترسُّل

(١.٢.٤) ما يتعلق بمراتب الألفاظ ومواقعها

(٢.٢.٤) ما يتعلق بمراتب الأدعية

(٣.٢.٤) ما يتعلق بمراتب التلقيب

(٤.٢.٤) ما يتعلق بمراتب التناصِّ

(٥.٢.٤) ما يتعلق بمراتب الاقتصاد في المكاتبات لإفادة المعنى

(٣.٤) المبادئ التداولية في خطاب الترسُّل

---

(١) محمد عبد الغني حسين، كتاب صبح الأعشى بمناسبة صدور فهارسه، مقالة بجريدة قافلة الزيت، عدد: ١٠، مجلد: ٢٢، أرامكو، المملكة العربية السعودية، ١٩٧٤، ص: ١٠.

(١.٣.٤) نظرية الملاءمة ومبدأ التعاون لجرايس

(٢.٣.٤) أفعال الكلام (الكتابية) وقوتها الإنجازية لأوستين وسيرل

(٣.٣.٤) أفعال الكلام الكبرى لفان دايك

(٤.٣.٤) التأدب والتلطُّف لجيفري ليتش

(٤.٤) من مبادئ تحليل الخطاب في أصول المكاتبات:

(١.٤.٤) الاختيارات التعبيرية لدى فيركلوف وهاليداي

(٢.٤.٤) المقاصد الجليلة ومفهوم البنية الكليَّة لدى فان دايك

(٣.٤.٤) التلقيب وتمثيل الفاعل الاجتماعي لفان لوفين

(٤.٤.٤) تخطِّي التصريح إلى التَّلويح ومبدأ التخفيف لوداك وريزيجل

(٥) الخاتمة: حجيَّة أصول المُكاتبات على ثراء الموروث العربي بأبعاد المناهج اللغوية الحديثة

**

الأصول التي يعتمدها الكاتب في المكاتبات كما أجملها صبح الأعشى

أستعرض في هذا العنصر أصول المكاتبات كما أوردها القلقشندي في صدر المقالة الرابعة من صبح الأعشى. وقد سبقت الإشارة إلى أن القراءة المنهجيَّة لهذه الأصول تستكشف ما تتضمنه من إشارات أو تبصُّرات أو إرهاصات تقارب في غاياتها التواصليَّة ومقاصدها التبليغية كثيرًا ممّا تتغيّاه وتقصد إليه (مبادئ) المناهج الحديثة في التحليل اللغوي (كما سيأتي تفصيله والاستشهاد عليه في العنصر: ٤). والجدول الآتي يُجمِل الأصول الكليَّة للمكاتبات (في العمود الأول)، وطرائق تحققها أسلوبيًّا وأغراضها التداولية (في العمود الثاني)، ثم يعقبها إضاءة مجمَلة تُقاربها بملامح المناهج الحديثة في التحليل اللغوي (في العنصر: ٣).

أصول المكاتبات	طرائق تحقُّقها أسلوبيًّا ووظيفتها التداوليَّة
الأصل الأول[1] **"أن يأتي الكاتبُ في أول المكاتبة بحسن الافتتاح المطلوب في سائر أنواع الكلام، من نثر ونظم مما يوجب التحسين؛ ليكون داعية لاستماع ما بعده."**	ويرجع حسن الافتتاح في المكاتبات إلى معنيين: ١) أن يكون الحسن فيه راجعا إلى المبتدأ به: إما بالافتتاح بالحمد لله؛ لأن النفوس تتشوَّف إلى الثناء على الله تعالى، أو بالسلام الذي جعله الشارع مفتتح الخطاب أو نحو ذلك. وإما بالافتتاح بما فيه تعظيم المكتوب إليه، من تقبيل الأرض أو اليد أو الدعاء له أو غير ذلك، فإن أمر المكاتبات مبني على التملق واستجلاب الخواطر وتألف القلوب. ٢) أن يكون الحسن فيه راجعا إلى ما يوجب التحسين، من سهولة اللفظ، وصحة السبك، ووضوح المعنى، وتجنب الحشو.

(١) صبح الأعشى، ج: ٦، ص: ٢٧٤.

الأصل الثاني[١] **"أن يأتي في ابتداء المكاتبة ببراعة الاستهلال المطلوبة في كلّ فنّ من فنون الكلام."**	بأن يأتي في صدر المكاتبة بما يدل على عجزها؛ فإن كان الكتاب بفتح، أتى في أوله بما يدل على التهنئة، أو بتعزية أتى في أوله بما يدل على التعزية، أو في غير ذلك من المعاني أتى في أوله بما يدل عليه؛ ليُعلَم من مبدأ الكتاب ما المرادُ منه.

الأصل الثالث[٢] **"أن يأتي في المكاتبة المشتملة على المقاصد الجليلة بمقدمة يُصدِّر بها تأسيسا لما يأتي به في مكاتبته."**	فلا يحسن بالكاتب أن يخلي كلامه – وإن كان وجيزا – من مقدمة يفتتحه بها وإن وقعت في حرفين أو ثلاثة، ليوفي التأليف حقه. وعلى هذا السبيل جرت سنة الكتاب في جميع الكتب كالفتوح، والتهاني، والتعازي، والتهادي، والاستخبار، والاستبطاء، والإحماد، والإذمام، وغيرها؛ ليكون ذلك بساطا لما يريد القول فيه، وحجة يستظهر بها السلطان؛ لأن كل كلام لا بد له من فرش يُفرش قبله ليكون منه بمنزلة الأساس من البنيان. والطريق إلى إصابة المرمى في هذه المقدمات أن تُجعَل مشتملة على ما بعدها من المقاصد والأغراض.

(١) السابق، ص: ٢٧٦.

(٢) السابق، ص: ٢٧٨.

الأصل الرابع[1] **"أن يعرف الفرق بين الألفاظ المستعملة في المكاتبات فيضعها في مواضعها."**	يجب على الكاتب أن يعرف مرتبة الألفاظ ومواقعها؛ ليرتبها ويفرق بينها فرقا يَقِفُهُ على الواجب وينتهي به إلى الصواب، فيخاطب كلا في مكاتبته بما يستحقه من الخطاب؛ فإنه قبيح به أن يكون خطابه أولا خطاب الرئيس للمرؤوس، ويتبع ذلك بخطاب المرؤوس للرئيس، أو يبدأ بخطاب المرؤوس للرئيس ثم يتبعه بخطاب الرئيس للمرؤوس.

الأصل الخامس[2] **"أن يعرف مواقع الدعاء في المكاتبات، فيدعو بكل دعاء في موضعه."**	ويتعلق النظر فيه بستة أوجه: ١) أن يعرف مراتب الدعاء ليوقعها في مواقعها ٢) أن يعرف ما يناسب كل واحد من أرباب المناصب الجليلة من الدعاء فيخصه به ٣) أن يعرف ما يناسب كل حالة من حالات المكاتبات ٤) أن يعرف مواضع الدعاء على المكتوب إليه ٥) أن يتجنب الخلاف في الدعاء في فصول الكتاب ٦) أن يتجنب وقوع اللبس في الدعاء

(١) السابق، ص: ٢٨٠.

(٢) السابق، ص: ٢٨٤.

الأصل السادس[١] **"أن يعرف ما يناسب المكتوب إليه من الألقاب فيعطيه حقه منها."**	ويتعلق الغرض من ذلك بثلاثة أمور: ١) أن يعرف ما يناسب من الألقاب الأصول ٢) أن يعرف ما يناسب كل لقب من الألقاب الأصول من الألقاب والنعوت التابعة لذلك ٣) أن يعرف مقدار المكتوب إليه

الأصل السابع[٢] **"أن يراعي مقاصد المكاتبات، فيأتي لكل مقصد بما يناسبه."**	ومدار ذلك على أمرين: ١) أن يأتي مع كل كلمة بما يليق بها ويتخير لكل لفظة ما يشاكلها ٢) أن يتخطى التصريح إلى التلويح والإشارة إذا ألجأته الحال إلى المكاتبة بما لا يجوز كشفه وإظهاره على صراحته.

الأصل الثامن[٣] **"أن يعرف مقدار فهم كل طبقة من المخاطبين في المكاتبات من اللسان فيخاطب كل أحد بما يناسبه من اللفظ، وما يصل إليه فهمه من الخطاب."**	أول ما ينبغي أن تستعمل في كتابك مكاتبة كل فريق على مقدار طبقتهم في الكلام وقوتهم في المنطق. والشاهد على ذلك أن النبي □ لما أراد أن يكتب إلى أهل فارس، كتب إليهم بما يمكنهم ترجمته، ولما أراد أن يكتب إلى قوم عرب، فخم اللفظ لما عرف من قوتهم على فهمه، وعادتهم بسماع مثله.

(١) السابق، ص: ٢٩٣.

(٢) السابق، ص: ٢٩٤.

(٣) السابق، ص: ٢٩٦.

الأصل التاسع[1] "**أن يراعي رتبة المكتوب عنه والمكتوب إليه في الخطاب، فيعبر عن كل واحد منهما في كل مكاتبة بما يليق به، ويخاطب المكتوب إليه بما يقتضيه مقامه.**"	أما المكتوب عنه، فيختلف الحال فيه باختلاف منصبه ورتبته. فإن كان المكتوب عنه ملكا، فقد جرت العادة أن يعبر عنه بنون الجمع للتعظيم فيقال: فعلنا كذا، وأمرنا بكذا. وفي معنى الملوك في ذلك سائر الرؤساء، من الأمراء، والوزراء، والعلماء، والكتاب، ونحوهم من ذوي الأقدار العلية، والأخطار الجليلة، والمراتب السنية في الدين والدنيا، ممن يصلح أن يكون آمرا وناهيا، إذا كتبوا إلى أتباعهم ومأموريهم، إذ كانت هذه النون مما يختص بذوي التعظيم دون غيرهم. أما المكتوب إليه، فينبغي أن يعرف قدر المكتوب إليه من الرؤساء، والنظراء، والعلماء، والوكلاء؛ ليفرق بين من يكتب إليه «أنا أفعل كذا» ومن يكتب إليه «نحن نفعل كذا».

(١) السابق، ص: ٣٠٠.

الأصل العاشر[١] **"أن يراعي مواقع آيات القرآن والسجع في الكتب، وذكر أبيات الشعر في المكاتبات."**	أما آيات القرآن الكريم، فقد ذكر ابن شيت في «معالم الكتابة» أنها في صدر الكتب، قد يذكرها الأدنى للأعلى في معنى ما يكتب به. وأما السجع، فقد ذكر ابن شيت: أنه لا يفرق فيه بين كتاب الأعلى للأدنى وبالعكس، وأنه بما يكتب عن السلطان أليق. وأما الشعر فيورده حيث يحسن إيراده، ويمنعه حيث يحسن منعه، فليس كل مكاتبة يحسن فيها إيراد الشعر، بل يختلف الحال في ذلك بحسب المكتوب عنه والمكتوب إليه. فأما المكاتبات الصادرة عن الملوك والصادرة إليهم، فلا يُتمثَّل فيها بشيء من الشعر، إجلالا لهم عن شوب العبارة عن عزائم أوامرهم ونواهيهم والأخبار المرفوعة إليهم، بما يخالف نمطها ووضعها، ولأن الشعر صناعة مغايرة لصناعة الترسل، وإدخال بعض صنائع الكلام في بعض غير مستحسن.

(١) السابق، ج: ٦، ص: ٣٠٦.

الأصل الحادي عشر[1] "**أن يأتي في مكاتبته بحسن الاختتام.**"	ويرجع إلى معنيين، كما في حسن الافتتاح: ١) أن يكون الحسن فيه راجعا إلى المعنى المختتم به، إما بمعاطاة الأدب من المرؤوس إلى الرئيس ونحو ذلك، وإما بما يقتضي التعزير والتوقير من الرئيس إلى المرؤوس، كالاختتام بالدعاء ونحو ذلك، مما يقع في مصطلح كل زمن. ٢) أن يكون الحسن فيه راجعا إلى ما يوجب التحسين من سهولة اللفظ، وحسن السبك، ووضوح المعنى، وتجنب الحشو، وغير ذلك من موجبات التحسين.

أصول المكاتبات الإنشائيَّة: قراءة ومقاربة منهجيَّة

وبالنظرة الكلية لهذه الأصول، يمكن استخلاص المقاربات الآتية:

أولًا. يركِّز الأصل الأول والأصل الحادي عشر على أهمية "الافتتاح والاختتام[2]مما يوجب التحسين"؛ ويتحقَّق هذا الملمح بطرائق أسلوبيَّة، منها: **(١)** الافتتاح بالحمد لله، أو بما فيه تعظيمُ المكتوب إليه؛ **(٢)** تقبيلُ الأرض أو اليد، أو الدعاءُ له؛ **(٣)** سهولة اللفظ، وصحة السبك، ووضوح المعنى، وتجنب الحشو، وغير ذلك من موجبات التَّحسين. ومما يستوقف المدقِّقَ في هذا الأصل . علاوةً

(١) السابق، ج: ٦، ص: ٣١٢.

(٢) راجع: الأصل الأول، ج: ٦، ص: ٢٧٤، والأصل الحادي عشر، ص: ٣١٢. ويُلاحظ في صيغتَي الافتتاح والاختتام أنهما وضِعتا على "الافتعال"؛ ويمكن توجيه هذا الوضع الاشتقاقي بدلالته الصرفيَّة، مما تحمله صيغة الافتعال من معاني الصنعة التي تصل في الحرص على الإتقان والتحقُّق إلى درجة التَّنميط (أو التَّطريز) الفني للحُلَّة والتكلف الإنشائي بمعناهما الإيجابي، وليس بمعنى الرياء والتصنع.

على أسلوبيَّة البنية الفنيَّة . ما ساقه القلقشندي من توجيه تداوليٍّ لأساليب المطالع على هذا النحو؛ فالاستهلال بحمد الله يكون داعية لاستماع ما بعده، ولأن النفوس تتشوَّف إلى الثناء على الله تعالى، أو بالسلام الذي جعله الشارع مفتتحَ الخطاب. والختام بتقبيل الأرض أو اليد أو الدعاء للمكتوب إليه . يُوجَّه تداوليًّا بأن (المعنى التواصلي) في المكاتبات مبني على التملق (أي التوسُّل والتودُّد والالتماس)، واستجلاب الخواطر وتأليف القلوب؛ بمعاطاة واجب الأدب من المرؤوس إلى الرئيس بما يقتضي التعزير والتوقير. ثم لا يخفى ما يكمن في موجبات التحسين (من سهولة اللفظ، وصحة السبك، ووضوح المعنى، وتجنب الحشو) ـ مما يقارب ما استقرَّ حديثًا من إستراتيجيات الخطاب كالاختيار التعبيري (أو المعجمي) Lexical choice، والوضوح التعبيري Explicitness، ومعيار السبك Cohesion، ومبدأ الاقتصاد اللغوي "كُن مُقتصِدًا Be brief"وهو أحد مبادئ التعاون لجرايس.

ثانيًا. أما الأصل الثاني والأصل الثالث فيوجِّهان إلى (١) ابتداء المكاتبة ببراعة الاستهلال، و(٢) تصدير المكاتبة المشتملة على المقاصد الجليلة بمقدمة؛ تأسيسا لما يأتي به في المكاتبة[١]. وهو ما يتحقَّق أسلوبيًّا بأن يستهلَّ المكاتبة بما يدل على مضمونها. فإن كانت في مناسبَة فَتْحٍ، أو تعزيةٍ، أو استخبارٍ، أو إحماد، أو فيما إلى ذلك من المعاني[٢]؛ فيحسُن بالكاتب أن يفتتحها بما يدل على

---

(١) راجع: الأصل الثاني، ص: ٢٧٦، والأصل الثالث، ص: ٢٧٨.

(٢) من مقاصد المكاتبات، وهي الأمور التي تكتب المكاتبات بسببها، وهي الجزء الأعظم من صناعة الترسل، وعليها مدار صنعة الكتابة: (١) ما يُكتب عن الخلفاء والملوك ومَن ضاهاهم، ومنه: انتقال الخلافة إلى الخليفة، والدعاء إلى الدين، الحث على الجهاد، الحث على لزوم الطاعة وذم الخلاف، الكتابة إلى من نكث العهد من المخالفين، الكتابة إلى من خلع الطاعة، الفتوحات والظفر واسترجاع المعاقل والحصون، والاستيلاء على المدن، الاعتذار عن السلطان في الهزيمة، توبيخ المهزوم وتقريعه والتهكم به، التضييق على =

مقصدها الجليل (أو المعنى الكلي). وعِلَّة استهلال المكاتبات بهذه المقدِّمات عند القلقشندي . بالإضافة إلى استيفاء التأليف حقَّه من الصَّنعة على ما جرَت عليه سُنَّة الكتاب . "أن تُجعَل مشتملةً على ما بعدها من المقاصد والأغراض؛ فيُعلَم من مَبدأ الكتاب ما المرادُ منه، و"ليكونَ ذلك بساطًا لما يريد القول فيه، وحجة يستظهر بها السلطان؛ لأن كل كلام لا بد له من فَرش يُفرش قبله ليكون منه بمنزلة الأساس من البنيان" بتعبير القلقشندي نفسه[1]. ولعلَّ في هذين الأصلين ما يقارب مفهوم فان دايك للبنية الدلالية الكبرى Semantic Macrostructure؛ التي تُبلور مضمون الخطاب وتتحقق تعبيريًّا بالإشارة في العناوين والافتتاحات والملخصات إلى أبرز المعلومات التي تجسد التيمات الخطابية. وعلى هذا، يرى فان دايك أن جوهر التحليل النقدي للخطاب هو التحليل الواضح والمنظَّم للبنى والإستراتيجيات على المستويات المختلفة للنص؛ بما فيها من البنى الدلالية الكبرى

=أهل الجرائم، النَّهي عن التنازع في الدين، الأوامر والنواهي، المكاتبات عند حدوث الآيات السماوية، في التنبيه على شرف مواسم العبادة وشريف الأزمنة، الكتابة بالسلامة في الركوب في المواسم والأعياد وما ينخرط في سلكها من المواكب الجامعة، المكاتبة بالبشارة بوفاء النيل والبشارة بالسلامة في الركوب لفتح الخليج، في البشارة بركوب الميدان الكبير بخط اللوق عند وفاء النيل في كل سنة، البشارة بحج الخليفة، الإنعام بالتشاريف والخلع، المكاتبة بالتنويه والتلقيب، المكاتبة بالإحماد والإذمام، ما يكتب مع الإنعام لنواب السلطنة بالخيل والجوارح، البشارة عن الخليفة بولد رُزِقَه، ما يُكتب عن السلطان في الجواب، ما يُكتب عن السلطان بالبشارة بعافيته من مرض. (٢) الكتب الصادرة عن نواب السلطنة إلى النواب بسبب ما يرد عليهم من المثالات السلطانية، ومنه: جلوس السلطان على تخت الملك، المكاتبة بورود المثال الشريف بوفاء النيل. (٣) ما يكتب عن النواب والأتباع إلى الخليفة أو السلطان، ومنه: الأجوبة عن الكتب السلطانية السابقة، ما يُكتب به عن نواب السلطان والأتباع إلى السلطان ابتداء. طالع: صبح الأعشى، الفصل السابع من الباب الثاني من المقالة الرابعة، ج: ٨، ص: ٢٣٣ . ص: ٤٠٣.

(١) صبح الأعشى، ج: ٦، ص ٢٧٩.

التي تسهم في تفسير البنى الداخلية بإدراكها في سياقها اللغوي، وسياقها الاجتماعي الذي أُنتجت فيه. كما يُلمح عبارة القلقشندي "وحجةً يستظهر بها السلطان" إلى مفهوم "المَقصديَّة" Intentionality وهي أحد معايير النصيَّة عند دي بوجراند، فبالإضافة إلى شروط الصنعة التي يجب توافرها في مفتَتح المكاتبة، هناك مستوًى أعلى من مستويات المعنى التواصلي يتمثل في مقصديَّة المفتَتَح في استظهار المكتوب إليه، باستمالته وتقريبه أو باستصراخه واستجاشته، أو باستبصاره واستشارته، أو باستعفائه واستماحته.

ثالثًا. ينبِّه القلقشندي في الأصل الرابع والأصل السابع إلى أهمية **(١)** معرفة مراتب الألفاظ ومواقعها، **(٢)** ومراعاة مقاصد المكاتبات وما يناسب كل مقصد من الألفاظ اللائقة[(١)]. وهو ما يستوجب معرفة الفوارق الدلالية والأسلوبية بين الألفاظ المستعملة في المكاتبات[(٢)] فيتخيَّر الكاتب لكل موضعٍ ما يليق به من الألفاظ وبما يستحقُّه سياق الخطاب. ويُلفِت القلقشندي إلى إحدى صور إخلال الكاتب بصنعة الترسُّل . إن لم يُدرك مراتبَ الألفاظ وما يُشاكِلها من مقاصدِ الخطاب . بقوله: "فإنه قبيحٌ به أن يكون خطابُه أولًا خطابَ الرئيس للمرؤوس،

(١) راجع: الأصل الرابع، ص: ٢٨٠، والأصل السابع، ص: ٢٩٤.

(٢) أشار القلقشندي إلى ما يجب على الكاتب معرفته من الألفاظ الكتابية، وهي "ألفاظ انتخبها الكتاب وانتقوها من اللغة استحسانا لها وتمييزا لها في الطلاوة والرشاقة على غيرها". انظر: صبح الأعشى، ج: ١، ص: ١٦٢. كما أشار ابن الأثير إلى "أن الكتاب غربلوا اللغة وانتقوا منها ألفاظا رائقة استعملوها". انظر: ابن الأثير، المثل السائر، ج: ٤، ص: ٨٩. وفي شَرف المعاني ومنزلتها من الألفاظ، يقول القلقشندي: "اعلم أن المعاني من الألفاظ بمنزلة الأبدان من الثياب، فالألفاظ تابعة، والمعاني متبوعة، وطلب تحسين الألفاظ إنما هو لتحسين المعاني، بل المعاني أرواح الألفاظ وغايتها التي لأجلها وضعت، وعليها بنيت؛ فاحتياج صاحب البلاغة إلى إصابة المعنى أشد من احتياجه إلى تحسين اللفظ". انظر: صبح الأعشى، ج: ٢، ص: ١٨٣.

ويُتبِع ذلك بخطاب المرؤوس للرئيس، أو يبدأ بخطاب المرؤوس للرئيس ثم يُتبِعه بخطاب الرئيس للمرؤوس"[(١)]. وبهذا التخيُّر السياقي، يتحقق التعبير (الصريح) عن مقاصد المكاتبات بما يليق بها من الألفاظ اللائقة. ومن عبقريَّة القلقشندي أنه لم يُغفل أن هناك من المقاصد ما لا يَحسُن التعبير عنها تصريحًا؛ فنبَّه الكاتِبَ إلى "أن يتخطى التصريح إلى التلويح والإشارة إذا ألجأته الحال إلى المكاتبة بما لا يجوز كشفه وإظهاره على صراحته مما في ذكره على نصه هتك ستر، أو في حكايته اطراح مهابة السلطان، وإسماعه ما يلزم منه إخلال الأدب في حقه"[(٢)]. وإذا كان هذا الشرط ـ معرفة مراتب الألفاظ ومناسبة المقاصد ـ جديرًا بالملاحظة لأنه من موجِبات صناعة الترسُّل والإنشاء؛ فإن ما يستحق التوقف هنا هو إدراك القلقشندي لما بات يُعرَف حديثًا من إستراتيجية الاختيار المعجمي (التعبيري) Lexical choice، وهو إحدى وسائل تحقق النصيَّة Textuality وإحدى إستراتيجيات تحليل الخطاب. وكذلك إدراكه لإستراتيجية التصريح Explicitness والتلميح Implicitness كما أشار إليهما فان دايك من طرائق تحليل الخطاب على مستوى البنية التركيبية للكلمات والجمل في النص، وعلى مستوى البنية الكلية لسياق الخطاب. ولا يخفى ما تتضمنه هذه التنبيهات من إشارة إلى أحد مظاهر التداوليَّة، وهو التأدُّب والتلطُّف Politeness؛ وبخاصة عند التعبير عما لا ينبغي إظهاره صراحةً أو حكايته بما يُخلُّ الأدب في حق المكتوب إليه.

رابعًا. والمدقِّق في الأصل السادس والأصل الثامن والأصل التاسع يستوقفه مراعاة مقام المُرسِل (المكتوب عنه) والمخاطَب (المكتوب إليه)؛ فيتخيَّر (١) ما يناسب رتبتَه من الألقاب، (٢) وما يناسب طبقَته من الألفاظ، (٣) وما يليق

(١) انظر: صبح الأعشى، ج: ٦، ص: ٢٨٠.

(٢) السابق، ج: ٦، ص: ٢٩٥.

بمقامه من الخطاب[١]. ويوضح القلقشندي كيف تتحقَّق مراعاة المقاميَّة في المكاتبة تعبيريًّا في طرائق مختلفة، من بينها: (١) معرفة ما يناسب المكتوب إليه من الألقاب الأصول[٢]، فيستعمل مثلًا لقب "المقام" مع أكابر الملوك. ثم معرفة ما يتبع هذه الألقاب من الألقاب الفروع[٣] والنعوت التابعة، فيقرن كلَّ لقبٍ بما يناسبه منها. ثم إن استيفاء حق المكتوب إليه من التلقيب يختلف كثرةً وقلةً حسب مقامه ووفق المتعارَف عليه وما يجري عليه الاصطلاح؛ فلا يَحسُن الإكثار من نعوت السلطان في الكتابةِ إليه، وإنما ينبغي الاقتصار في نعته على ما يكون فيه كتلقيبه بالعالِم العادِل، أو بنعته المضاف إلى الدِّين. أما في الكتابةِ عنه فكلما كثُرت النعوت؛ كان هذا من قبل التشريف من السلطان للمكتوب إليه. (٢) كما تتحقق المقامية في المكاتبات بمراعاة الإفهام، أي باختيار الألفاظ المناسبة لمقدار فهم المخاطب (المكتوب إليه) ومدى معرفته باللغة المكتوب بها، وما يصل إليه إدراكه من الخطاب. واستدلَّ القلقشندي على هذا بتسهيل النبي ﷺ في كتابه إلى

(١) راجع: الأصل السادس، ج: ٦، ص: ٢٩٣، والأصل الثامن، ص: ٢٩٦، والأصل التاسع، ص: ٣٠٠.

(٢) الألقاب الأصول: هي الألقاب المتعارَف عليها مجتمعيًّا، كالمقام، والمقر، والجناب، والمجلس . راجع: الأصل السادس، ج: ٦، ص: ٢٩٣.

(٣) الألقاب الفروع: هي النعوت التابعة التي تُلحَق باللقب الأصل، وتختلف أنواعها ومراتبها باختلاف المقامات والرتب وما اصطُلِح عليه في كل عصر، فلقب "المقام" يتبعه من الألقاب الفروع وفق ما جرى عليه الحال نعتُ "الأشرف" وهو أسماها، ودُونه "الشريف"، ثم "العالي"، وقد تتعدد الألقاب الفروع والنعوت التابعة وفق نسقٍ معيَّن وعدد محدد، كما في "المقام الأشرف العالي المولوي السلطاني الأعظمي الشاهنشاهي العالمي العادلي ..."، ويُتخيَّر اللقب الفرع إما لزومًا كما في "المجلس العالي"، أو تمشِّيًا مع الوظيفة كلقب "العادِلي" للحكام، و"العالمي" للعلماء، أو إشارةً إلى طبقة الملقَّب كلقب "الأميري" للأمراء، و"الحاكمي" للقضاة، و"الصَّدْري" للتجار . انظر: د. حسن الباشا، الألقاب الإسلامية في التاريخ والوثائق والآثار، الدار الفنية للنشر، مصر، ١٩٨٩، ص: ٩٠.

أهل فارس غاية التسهيل بما يمكن ترجمته من الألفاظ؛ مراعاةً لمقدار معرفتهم باللسان العربي، ثم فخَّم اللفظ في كتابه إلى قومٍ عرب؛ لما لهم من قوةٍ على فهمه، وعادتهم بسماع مثله[1]. ولعل المتأمِّل في الأسلوب القرآني يستوقفه هذا التدرج في الأسلوب بما يحسُن أن يكون شاهدًا على مراعاة المعرفة اللسانية في الخطاب وإيقاع المشاكلة بين الحال واللفظ، كما يتجلَّى في خطاب القرآن للعرب والأعراب بالإشارة بلاغةً، على حين يخاطب بني إسرائيل ويحكي عنهم بَسْطًا وتفصيلًا؛ للإفهام. ومن طرائق تحقق المقاميَّة في المكاتبة تعبيرًا **(٣)** مراعاةُ رتبة المكتوب عنه ومنصبه من الرؤساء والنظراء والعلماء والوكلاء. فإن كان المكتوب عنه "خليفةً" مثلا، لُقِّبَ في الكتب الصادرة عنه "بأمير المؤمنين"، وخوطِبَ "بالديوان العزيز". ولا يحسُن في الخطاب أن يكون على صيغةٍ واحدة من التعبير، وإنما ينبغي أن يُشاكل قدْرَ المخاطَب ويليقَ برتبته. فلا يجوز أن يُبنَى خطاب السلطان في "التَّعزية" . كما يمثِّل القلقشندي، نقلًا عن ابن خلف في مواد البيان . "على وعظه وتبصيره وحضه على الأخذ بحظ من الصبر، وتلقي الحادثات بالتسليم والرضا؛ وإنما يُبنَى خطابه على أنه أعلى شانا، وأرفع مكانا، وأصح حزما، وأرجح حلما، من أن يعزى. بخلاف المتأخر في الرتبة، فإنه إنما يعزى

(١) انظر: صبح الأعشى، ج: ٦، ص: ٢٩٦. نقلا عن: أبي هلال العسكري، الصناعتين، تح: علي البجاوي، ومحمد أبي الفضل إبراهيم، المكتبة العنصرية، بيروت، ١٤١٩هـ، ص:١٥٥. وهذا ما يؤكِّد عليه ابن خلف في مواد البيان بقوله" فيجب على الكاتب أن يتنقل في استعمال الألفاظ على حسب ما تقتضيه رتب الخطاب والمخاطبين، وتوجبه الأحوال المتغايرة، والأوقات المختلفة؛ ليكون كلامه مشاكلا لكل منها، فإن أحكام الكلام تتغير بحكم تغير الأزمنة والأمكنة ومنازل المخاطبين والمكاتبين" . انظر: علي بن خلف، مواد البيان، تح: حاتم الضامن، ٢٠٠٣، دار البشائر، سورية، ص: ٧٦.

تنبيها وتذكيرا، وهداية وتبصيرا، ويعرف الواجب في تلقي السراء بالشكر، والضراء بالصبر "[١].

ولعل العارفَ بالمناهج الحديثة في التداولية وتحليل الخطاب . لا تعييه ملاحظة التقارب الواضح بين ما يؤصِّل إليه القلقشندي من مراعاة المقامية في المكاتبات تلقيبًا وتعبيرًا وخِطابًا، وما استقرت عليه مناهج التحليل التداولي والخِطابي من مراعاة السياق الخارجي للحدث التواصلي بما يتضمنه من العلاقات الثقافية والاجتماعية بين المرسِل (بوصفه منتجًا للخطاب) والمتلقي (بوصفه مستقبلًا للخطاب)، وتأثير هذه العلاقات في بنية الرسالة (أو الخِطاب) من حيث التلقيب Labeling، الاختيار التعبيري Lexical choice، وطرائق التأدب Politeness، والوظائف التواصليَّة للغة Interpersonal Functions، وطرائق الاستمالة Appeals، ومراعاة المقام Situation والعلاقة الاجتماعية Social relation.

خامسًا. وفي الأصل الخامس، يُنبِّه القلقشندي إلى ما يجب على الكاتب مراعاته في مكاتبته من الأدعية، فللأدعية مراتب ومواقع ينبغي (١) معرفتها ليُورِدَ في كل موضع ما يناسبُه من الدعاء للمكتوب إليه، (٢) ثم معرفة ما يخُصُّ كل واحد من أرباب المناصب الجليلة من الأدعية، فيخص الملوك "بإطالة البقاء"، ومَن دونهم "بالمدِّ في العمُر". ويدعو للأمراء "بعز الأنصار"، وللقضاة "بعز الأحكام"، وللتجار "بمزيد الإقبال. ثم (٣) معرفة ما يناسب مقصدَ كل حالةٍ من حالات المكاتبات[٢]، فيأتي بما يدلُّ عليه من الأدعية. ومما لَفَتَ إليه القلقشندي

---

(١) انظر: صبح الأعشى، ج: ٦، ص: ٣٠٤.

(٢) يفصِّل القلقشندي حالات المكاتبات: "فتارة تكون باعتبار الشيء المكتوب بسببه. كما يكتب في معنى البشارة بجلوس الملك على تخت الملك: (لا زال أمره! وأمتعه من البشائر بما يتوضح على جبين الصباح بشره ...)، وكما يكتب في التهنئة بعافية (ولا برح في برد الصحة رافلا)، وتارة تكون باعتبار حال المكتوب إليه التي هو بصددها، كما يكتب لمن=

في مراعاة المناسبة في الدعاء، (٤) تجنُّبُ ما كرِهَه الكُتاب من في المكاتبة من الأدعية مُطلقًا مما لا محصول له، ومنه "جعلني الله فداك"؛ لما فيه من تكلُّفٍ لا تسمح النفس باستجابته، وتملُّقٍ لا يرضي السلطان. ومن الأدعية المكروهة ما يخصُّ الرجال دون النساء، والعكس. (٥) اللَّبسُ، فلو ذكَر الكاتب ـ مثلًا ـ "وقد كان من عدو سيدي ـ أبقاه الله ـ كذا"؛ لوقعَ اللَّبسُ باحتمال عوْد الدعاء إلى سيده وإلى عدو سيده.

والمتأمِّل في هذا الأصل تستوقفه الإشارة الواضحة إلى مفاهيم المناسبة، والمقاميَّة، وتجنُّب اللبس. وكلها مفاهيم مستقرة في المناهج الحديثة في تحليل الوظيفة الاتصالية للغة، وتحليل العلاقة بين البنية الشكليَّة من ناحية وما تحمله من وظائف تداولية وخطابية من ناحية ثانية، أو بعبارة أخرى، تتصل هذه المفاهيم بتحليل عمليات إنتاج الخطاب وتلقيه وتفسيره بما يحقق التماسك التداولي Pragmatic coherence أو الهدف الضمني لمبدأ التعاون the cooperative principle الذي اقترحه جرايس؛ إذ إن الحدث التواصلي لا يقتصر على ما تحمله اللغة من معانٍ مباشرة؛ وإنما يمتد ليشمل طرائق التعبير عن المقاصد، وتعاون المتلقي في استنتاج المعاني الضمنية للغة فيما يُسمَّى بالتَّضمين Implicature. ولعل من قواعد مبدأ التعاون لجرايس قاعدة الأسلوب Maxim of manner، حيث الوضوح التعبيري وتجنب اللبس والإبهام. كما

=خرج إلى الغزو: (وحفه بلطفه فلا يخيب، وهيأ له النصر والفتح القريب ...)، وكما يكتب إلى من خرج إلى الصيد: (وأمتعه بصيوده، وجعل الأقدار من جنوده ...)، وكما يكتب إلى قاض: (وفصل بين الخصوم بأحكامه المسددة ...)، وتارة تكون باعتبار بلد المكتوب إليه وناحيته، كما يكتب إلى نائب الشام: (ولا زال النصر حلية أيامه وشامة شامه ...)، وتارة تكون باعتبار اسم المكتوب إليه أو لقبه، كما يكتب إلى من لقبه عز الدين: (ولا زال عزه دائما ...)، وكما يكتب إلى من لقبه شمس الدين: (ولا زالت شمس سعادته مشرقة ...)". انظر: صبح الأعشى، ج: ٦، ص: ٢٨٧ ـ ص: ٢٨٩.

يستوقف المتأمل في إشارات القلقشندي إلى هذه المفاهيم . إلى جانب البنية الشكلية والوظيفة، أو ما يمكن تسميته بالقيود اللغوية . ما تُلمِح إليه هذه إشارات من أثرٍ لعوامل السُّلطة Power، والموقف التواصلي Situational factors، والسياق الاجتماعي Social context لمنتج النص ومتلقيه (فيما يمكن تسميته بالقيود البراجماتية) . في تنوع الاختيارات التعبيرية Lexical choices، ودرجات التأدب Politeness، والتَّلطُّف Mitigation من خلال توظيف "إستراتيجية الدعاء" لتقوية الغرض الإنجازي للغة بالتعبير عن المعنى التأثيري Affective meaning في المتلقي.

سادسًا. أما الأصل العاشر من أصول المكاتبات، فيوجِّه الكُتّاب إلى ما تجب مراعاته عند "التناص"، وتحديدًا (١) إيراد آيات من القرآن الكريم، و(٢) أبيات من الشعر في المكاتبة. وإن كان هذا الأصل يلفت إلى إحدى طرائق التحسين والتزيين البديعي في المكاتبات، وهي (٣) السجع[١]. والذي يستوقف المتأمل هنا، ما استدلَّ به القلقشندي من كلام ابن شيت في (معالم الكتابة) مما جرت عليه العادة في المكاتبات؛ حيث لا يُستَحْسَنُ إيراد الآيات القرآنية في صدور الكتب إلا ما كان منها من الأدنَى إلى الأعلى، في معنى ما يكتب به من مناسبات أو وقائع[٢]. ومعنى هذا القيد أنها تُمنع في مكاتبات الرئيس للمرؤوس، ولا تُستحسَنُ في أثناء المكاتبات. أما الشعر فيختلف الحال في إيراده بحسب المرسِل (المكتوب عنه) والمخاطب (المكتوب إليه)، فلا يُتمثَّل بشيءٍ من الشعر في المكاتبات الصادرة عن الملوك والصادرة إليهم. ويبرِّر القلقشندي هذا المنع بقوله "إجلالا لهم عن شوب العبارة عن عزائم أوامرهم ونواهيهم والأخبار المرفوعة إليهم، بما يخالف

---

(١) راجع الأصل العاشر، ج: ٦، ص: ٣٠٦.

(٢) انظر: ابن شيت، معالم الكتابة ومغانم الإصابة، تح: الخوري قسطنطين، المطبعة الأدبية، بيروت، ١٩١٣، ص: ٤٨.

نمطها ووضعها، ولأن الشعر صناعة مغايرة لصناعة الترسل، وإدخال بعض صنائع الكلام في بعض غير مستحسن"[١]. ولعل هذا المنع مكروه في مكاتبات الملوك إلى من دونهم، لأن القلقشندي يستدرِك بتعقيبه أن الملوك إذا كتبوا إلى من ضاهاهم، فلا مانعَ من التمثُّل بأبيات الشعر؛ تطريزًا للنثر بالنظم، وجمعًا بين جنسَيْ الكلام[٢]. أما تسجيع الكلام في المكاتبة، فلا قيدَ فيه في الكتابة من الأعلى لمن دونه والعكس، وإن كان أليق في المكاتبات عن السلاطين والملوك.

وإذا كانت هذه القيود في البنية الشكلية تستوقف المدقق في هذا الأصل، فإن مما يثير التعجب التوجيه التداولي في منع التمثل بالشعر في مكاتبات الملوك، مراعاةً لرسميَّة السياق ومقصدية التعبير في هذا الموقف التواصلي. ولا يخفى على المطالع ما سبقت الإشارة إليه من مقاربة مضمون هذا الأصل لما بات مستقرًّا في المناهج اللغوية الحديثة في تحليل النص والخطاب حول مفهوم "التناص" Intertextuality أو تعالق النصوص أو تواردها وتفاعلها، وهو أحد معايير النصيَّة Textuality من ناحية، وإحدى علامات الحبك (التماسك النصي) Coherence من ناحية أخرى، علاوةً على دوره في عملية التلقي.

هذه هي أصول المكاتبات كما أجملها القلقشندي في المقالة الرابعة. وعلى الرغم من احتمالها إشارات تتعلق بالوظيفة الاتصالية للغة (فيما يمكن تأطيره تداوليًّا وخطابيًّا ومقاربته بالمناهج الحديثة في التحليل اللغوي)؛ فإن هذه الأصول في مجملها تشير إلى الكفاءة الأسلوبية لدى القدماء وتحديدًا في مجال النثر المنظوم. ومن هنا غلبت عليها النزعة التعليمية المباشرة Pedagogical dimension؛ فهي توجيهات ونصائح للكتّاب حول البنية النموذجية للمكاتبات

(١) انظر: صبح الأعشى، ج: ٦، ص: ٣٠٧.

(٢) انظر: المرجع السابق، نفسه.

على مستوى التخيُّر اللفظي ومستوى التحسين والتزيين البديعي، ومستوى ثقافة الكاتب نفسه بما ينبغي معرفته ومراعاته من المقاصد والحالات والمقامات، فيما يُعرَف بمعايير الاتصال. ولأن هذه الثنائيَّة (ثنائيَّة البنية الشكلية والوظيفة التواصلية للغة) تتمحور حول فهم السلوك اللغوي وكيفية عمل النظام اللغوي (وهو مناط الاتجاهات الحديثة في التحليل اللغوي)؛ فسأركز في العنصر الآتي على ما تضمنته هذه الأصول من إشارات تقارب ما استقر في المناهج اللغوية الحديثة من مفاهيم اصطلاحية، ومنطلقات منهجية، وغايات تحليلية نصيًّا وتداوليًّا وخطابيًّا.

الأبعاد النصية والتداولية والخطابية في أصول المكاتبات الإنشائيَّة

أحاول في هذا العنصر أن أُقارب المعايير النَّصِّيَّة والتداوليَّة والخطابيَّة التي اعتمدها القلقشندي في أصول المكاتبات الإنشائية. وسأركز . من باب الإجمال . على المعايير الكُليَّة في هذه المستويات الثلاثة؛ لما يستحقُّه تناول كل مستوىً من إفراد بحث مستقل تفصيلًا وتمثيلًا. فمن المعايير النصيَّة، سأتناول معيار "**المقاميَّة**" Situationality وما تستصحبه من كفاءةٍ تعبيريَّة تحقق مفهوم النصيَّة من حيث البنية الشكلية، ومن حيث الوظيفة التواصلية وما تستلزمه من اختيارات تعبيرية، وتلقيبٍ، ودعاءٍ، وتناصٍّ. ومن الأبعاد التداوليَّة سأركز على **ما يمكن مقاربته المبادئ التداولية في أصول المكاتبات** بنظرية الملاءمة ومبدأ التعاون لجرايس، وأفعال الكلام (الأفعال الكتابية) وقوتها الإنجازية لأوستين وسيرل، وأفعال الكلام الكبرى لفان دايك، والتأدب والتلطُّف لجيفري ليتش. ومن الأبعاد الخطابيَّة، سأعرض **بعض مبادئ تحليل الخطاب** Critical Discourse Analysis التي أشار إليها القلقشندي في أصول المكاتبات، ومنها: الاختيار التعبيري للألفاظ والألقاب والأدعية (كما أصَّل لها فيركلوف وهاليداي)، والمقاصد الجليلة أو البنية الكلية للمكاتبة (كما قدمها فان دايك)، وتمثيل الفاعل الاجتماعي

(كما اقترحه فان لوفين)، والتصريح والتلميح أو التخفيف (كما تبنَّته وداك وريزيجل).

(١.٤) خصائص النص في خطاب الترسل:

بمدارسة أصول المكاتبات، يستوقف المدقق ما يؤكد إدراك العقلية العربية لمعايير النصيَّة وللخصائص التي ينبغي أن تتوفَّر في النص[١] كما اقترحها دي بوجراند ودريسلر[٢]، وهي ثلاث خصائص: **الكفاءة** efficiency، **والفعاليَّة** effectiveness، **والملاءمة** appropriateness. إذ تعتمد كفاءة النص على الاقتصاد اللغوي باستخدام الحد الأدنى من الجهد والكلمات في تحقيق التواصل النصِّي بين منتج النص ومتلقيه؛ أما فعاليَّة النص فتعتمد على مدى نجاح النص في تحقيق الهدف التواصلي communicative goal؛ وأما ملاءمة النص فتتوقف على مدى توافق النص مع الموقف أو سياق الحال context of situation وتَحقُّق معايير النصية[٣]. وبهذا يتداخل مفهوم "النص" مع مفهوم

---

(١) مصطلح text "نص" مشتق من الفعل اللاتيني texere بمعنى ينسج أو يحيك أو يؤلِّف؛ إشارةً إلى أن الكلمات تُنسج وتؤلَّف معًا في نسيج متسق داخل النص المعين. والنصُّ تتابعٌ من العناصر أو الوحدات اللغوية كالكلمات والعبارات والجمل، يكوِّن وحدة دلالية (أو خطابية) تتضمن معنى تواصليًّا متَّسقًا، وفق معايير النصية المعروفة، وهي: (السبك والحبك والقصدية والمقبولية والإعلامية والمقامية والتناص).

(٢) روبرت دي بوجراند، النص والخطاب والإجراء، ترجمة: تمام حسان، عالم الكتب، القاهرة، ١٩٩٨، ص: ١٠٦ – ١٠٧.

(٣) النصيَّة Textuality هي: توفر الخصائص التي تجعل النصَّ نصًّا. فلا يُعدُّ نصًّا كل مجموع من الكلام يفتقر إلى الترابط النحوي والاتساق الدلالي. وتتحقق النصيَّة كما يرى هاليداي من خلال وسائل متعددة، منها العزو أو الإحالة المشتركة co-referentiality كما في [قابلتُ صديقي وحدثتُه عن الاختبار] حيث تتحقق الإحالة بين [صديقي] وعنصر الإحالة anaphoric (الضمير العائد "ه" في حدَّثته). ومنتج النص (المتحدث / الكاتب) يوظف علاقات الترابط النحوي والاتساق الدلالي ليحقق النصية، أما متلقي النص=

"الخطاب" من حيث **الوظيفةُ التواصلية** التي تتحقق من خلالهما؛ ومع هذا يمكن التمييز بينهما من حيث **الطبيعة، والمكونات، وآليات التحليل**؛ فمن حيث الطبيعة، يُنظر إلى النص على أنه إحدى الصور المادية (المنطوقة أو المكتوبة) التي يتحقق فيها الخطاب بطبيعته المجردة؛ فإذا كان النص **بنيةً** من وحدات لغوية؛ فإن الخطاب **منظومة** من الأفكار والقيم التي تنعكس في النصوص وفي الممارسات اللغوية الملموسة (ومنها المكاتبات) . فالخطاب هو البنية العميقة التي تشكل البنى السطحية المختلفة ومنها النص. والنص (بوصفه حدثًا لغويًّا) يقوم على علاقات لغوية داخلية؛ ومن ثمَّ يعتمد (التحليل النصّي) على وصف العلاقات البنيوية وتفسيرها في إطار وظيفتها اللغوية التي تتحقق بها النصيَّة أو التي بدونها لا يعد النص نصًّا. في حين يقوم الخطاب على علاقات اجتماعية خارج السياق اللغوي فهو (ممارسة اجتماعية). ومن ثم، فالخطاب يعتمد في

=(السامع / القارئ) فيتفاعل مع هذه العلاقات عند تفسيره للنص. وتتحقق النصيَّة لغويًّا بالحبك coherence، كما تتحقق دلاليًّا بالسبك cohesion. ومن سائل تحقق النصية ترابط الكلمة مع نظيرتها من خلال علاقة التصاحب اللفظي collocation أو التكرار reiteration أو الترادف synonymy. والتركيب إحدى وسائل التعبير عن النصية؛ إذ إن الجمل والعبارات والكلمات تنتظم تركيبيًّا في متوالية نصية progression of text أو ما يُعرف بالتعاقبيّة sequentiality أو التسلسل السَّطري (الأفقي) linear sequence بين الوحدات الداخلية للنص بتوظيف أدوات الربط cohesive devises (مثل أدوات العطف، والاستدراك، والتعليل، والظروف، ...إلخ) التي تجعل النص يتعالق أو يتماسك في وحدة واحدة. كما تتحقق النصيَّة في النص المعين من خلال الإحالة reference، والاستبدال substitution، والحذف ellipsis. ويفرِّق هاليداي بين نوعين من النصيَّة: (١) النصيَّة المحكَمة tight texture التي تتحقق في النص باستعمال عدد وافر من روابط السبك التي تدل على قوة تآزر (أو نظم) العناصر الداخلية في وحدة نصية متماسكة؛ و(٢) النصية الفضفاضة loose texture (أو غير المحكمة) التي تنتج عن استخدام عدد قليل من أدوات الربط بين مكونات النص.

تفسيره أو تحليله على وسائل لغوية، بالإضافة إلى عناصر السياق الاجتماعي التي تحيط بعملية إنتاج الخطاب وتلقيه وتأويله.

(٢.٤) معيار المقاميَّة في مراتب خطاب الترسل:

ولا أكون مبالغًا إن قلت إن هذا الإطار التنظيري لا يُعيي الباحثَ التماسُه في أصول المكاتبات التي أطَّرها القلقشندي؛ فقد أشار إلى كيفية تأثير (المقاميَّة) . وهي أحد معايير النصيَّة . في **الاختيار التعبيري** (مراتب الألفاظ)، وفي **إيراد الأدعية** المناسبة (لمراتب المخاطَب، ومقصِد المكاتبة)، وفي **التلقيب** (تخيُّر ما يليق بالمكتوب له من الألقاب المناسبة)، وفي **التناص** (إيراد آيات من القرآن أو أبيات من الشعر أو الأمثال ونحوها في المكاتبة)، وفي **الاقتصاد اللغوي** (الإيجاز والإطناب بما يُناسب جليل المقام ومناسبة المكاتبة) . بما يحقق الغاية التواصلية من المكاتبة، وبما يحقق التفاعل المنشود من جانب المتلقي (المكتوب إليه). فمفهوم المقاميَّة(المناسَبة أو المرتَبة بتعبير القلقشندي) في أصول المكاتبات مفهومٌ سياقيٌّ (اجتماعيٌّ) يمثل قَيْدًا تداوليًّا في التعبير اللغوي على مستوى البنية النصيَّة من ناحية، وعلى مستوى مراتب الخِطاب من ناحية أخرى. ويمكن إجمال الأبعاد المقاميَّة التي تُشكِّل مراتب خطاب الترسُّل فيما يأتي:

(١.٢.٤) ما يتعلق بمراتب الألفاظ ومواقعها؛ أي بالاختيار التعبيري لمراتب الألفاظ اللائقة بما يناسب مقاصد المكاتبات وبما يليق بمقام المكتوب عنه والمكتوب إليه، وهو ما يستوجب معرفة الفوارق الدلالية والأسلوبية بين الألفاظ المستعملة في المكاتبات (كما سبقت الإشارة في القراءة المجملة للأصل الرابع). فقد تتقارب الألفاظ في مدلولها (كما في: أصْدَرْنا هذه المكاتبة، وأصْدَرْناها، وأُصْدِرتْ، وصَدَرَتْ)؛ لكنها تتفاوت في مرتبتها ومناسبتها للمقام، فيلفت القلقشندي كاتبَ الإنشاءِ إلى ترتيبها والتَّفريق بينها بما "يقفُه على الواجب وينتهي به إلى الصواب، فيخاطب كلا في مكاتبته بما يستحقه من الخطاب". **فأصْدَرْنا هذه**

المكاتبة وأصْدَرْناها أعلى مرتبةً ومناسبَةً لمقام المكتوب إليه (المتلقي)؛ "للتصريح فيها بالضمير العائد على الرئيس التي صدرت المكاتبةُ عنه، إذ الشيء يشرُف بشَرَف متعلَّقِه". أما **أُصْدِرتْ** فتشير ضمنًا إلى إصدارها عن الرئيس دون إسنادها لضمير المتكلم؛ فتأتي في مرتبةٍ أقل "وإنما كانت دون الأولى للتصريح بالضمير هناك دون هنا". ودونهما في المرتبة **صَدَرَتْ** "لاقتضاء الحال صدورها بنفسها دون دلالة على المصدر أصلا". ومن ذلك مناسبة الاختيار التعبيري **(ومَرْسُومُنا لفُلانٍ بِكَذا)** لمقام المكتوب عنه، بخلاف **(والمَرْسُومُ لَهُ بِكَذا)**؛ لإضافة الأول إلى نون الجمع التي تقتضي التعظيم، "ولذلك اختُصَّت بالملوك دون غيرهم". ومنه أيضًا رتبة الاختيار التعبيري **(ونُبدي لعِلْمِه)** لأنه أليَقُ في حق المكتوب إليه من اختيار **(ونوضِّحُ لعِلْمِه)**؛ إذ "الإبداء يرجع في المعنى إلى إظهار شيء خفي، والإيضاح يرجع إلى بيان مشكل، وحصول الإشكال المحتاج إلى الإيضاح ربما دلَّ على بعد فهم المخاطَب عن المقصود، بخلاف إظهار الخفي فإنه لا ينتهي إلى هذا الحد"[(١)]. كما تتحقق المقامية في المكاتبات بمراعاة الإفهام، أي باختيار الألفاظ المناسبة لمقدار فهم المخاطب (المكتوب إليه) ومدى معرفته باللغة المكتوب بها، وما يصل إليه إدراكه من الخطاب. وقد سبقت الإشارةُ إلى استدلال القلقشندي على هذا بتسهيل النبي ﷺ للألفاظ في كتابه إلى أهل فارس؛ مراعاةً لمقدار معرفتهم باللسان العربي، وبتفخيمه للألفاظ في كتابه إلى العرب؛ لما لهم من قوةٍ على فهمه.

(٢.٢.٤) ما يتعلق بمراتب الأدعية، فيُورِدَ الكاتبُ ما يناسبُ المكتوب إليه من الدعاء، فالدعاء **(بإطالَةِ البَقاءِ)** أعلى رتبةً من الدعاء **(بإطالَةِ العُمُر)**؛ "وذلك أن البقاء لا يدلُّ على مدة تنقضي لأنه ضد الفناء، والعُمُر يدل على مدة تنقضي؛

(١) انظر: صبح الأعشى، ج: ٦، ص: ٢٨١.

ولذلك يوصف الله تعالى بالبقاء ولا يوصف بالعمر"[١]. كما أن للأدعية مراتب تناسب مقامات أرباب المناصب الجليلة، فالدعاء **(بإطالَةِ البَقاءِ)**، و**(دَوامِ السُّلْطانِ)**، و**(خلود الملك)** تخصُّ الخلفاء ومن في منزلتهم من الملوك، أما مَن دونهم في المنزلة فيليق بهم الدعاء **(بالمدِّ في العمُر)**؛ "لأن الوصف بطول الزمان أبلغ من الوصف بالمد فيه من حيث إن المد قابل للمدة الطويلة والمدة القصيرة؛ ولذلك صارت مرتبة الطول أقرب إلى مرتبة البقاء من مرتبة المد"[٢]. أما مرتبة الأمراء فيُدعَى لهم **(بعز الأنصار)**، و**(عز النصر"**، و**(مضاعفة النعمة)**، و**(مداومتها)**. ويليق بالوزراء الدعاء لهم **(بسبوغ النعماء)**، و**(تخليد السعادة)**، و**(دوام المجد)**. وللقضاة والحُكام **(بعز الأحكام)**، و**(تأييدها)**. وللتجار **(بمزيد الإقبال)**، و**(خلود السعادة)**. ومن معالم المقاميَّة في الدعاء . الاحتراز في تنزيل المكتوب إليه منزلته؛ فلا يُدعَى في المكاتبة عن السلطان لأحدٍ (بلا زال)، و(لا برِحَ) إلا إذا كان المكتوب إليه ملكًا، أو ولدَ السلطان إذا كان نائبًا عنه في المُلك؛ فلا يدعو بهما الأعلى للأدنى[٣]. وقد سبقت الإشارة (في قراءة الأصل الخامس) إلى مراعاة ما يناسب كل حالةٍ من حالات المكتبات، فيُدعَى بما يدلُّ عليها، كأن يدعو في حال التهنئة بعافية بـ **(ولا بَرِح في بَرَدِ الصحةِ رافِلًا)**، ويُدعَى بما يناسب حال المكتوب إليه، ومنه الدعاء للقاضي مثلًا بـ **(وفَصَلَ بينَ الخُصومِ بأحْكامِهِ المُسَدَّدَة)**. ومن مراعاة المقاميَّة في الدعاء . كذلك . تجنُّبُ ما كُرِهَ في المكاتبات من الأدعية مما لا طائلَ منه، ومنه **(جَعَلني اللهُ فِداكَ)**، و**(قدَّمني إلى السّوءِ دونَكَ)**؛ ويفسر ابن خلف في (موادِّ البيان) عدم مقبوليَّة مثل هذا الدعاء وكراهته لما فيه "من التصنع والملق الذي لا يرضاه السلطان؛ لأن نفس الداعي لا تسمح

(١) انظر: صبح الأعشى، ج: ٦، ص: ٢٨٤.

(٢) انظر: علي بن خلف، مواد البيان، مرجع سابق، ص: ٣٣٤.

(٣) انظر: علي ابن شيت، معالم الكتابة مرجع سابق، ص: ٣٧.

باستجابته"[١]. ومن الأدعية المكروهة ما يخصُّ الرجال دون النساء، والعكس. فمما لا يُستحسَنُ في حق الرجال الدعاءُ لهم بالإمتاع نحو **(أمْتعَ اللهُ بكَ)**، و**(متَّعني اللهُ بِكَ)**. ومما يُكرَه في حق النساء الدعاء لهن بالكرامة نحو **(أدامَ كرامَتَكِ)**؛ لأن كرامةَ النساء دفنُهن، كما يُكرَه الدعاء بـ **(أتَمَّ نعمتَهُ عليْكِ)** والأَوْلى **(لديْكِ)**؛ ويفسِّر القلقشندي وجه الكراهة فيه "لما يُلمَح فيه من ذكْر العُلوِّ على النساء"[٢].

(٣.٢.٤) ما يتعلق بمراتب التلقيب، باختيار ما يناسب رتبةَ المُرسِل (المكتوب عنه) والمخاطَب (المكتوب إليه) من الألقاب الأصول، فيستعمل مثلًا لقب "المقام" مع أكابر الملوك، ولقب "المقرّ" لمن دونهم من الملوك، ولقب "الجناب" للرتبة الثالثة، ولقب "المجلس" للرتبة الرابعة، ولقب "مجلس الأمير" لمن دون ذلك من أهل الدولة. ثم فيقرن كلَّ لقبٍ من الألقاب الأصول بما يناسبه من الألقاب الفروع والنعوت التابعة، فمن الألقاب الفروع والنعوت التابعة للقب "المقام": "الأشرف"، و"الشريف"، و"العالي" (على الترتيب من الأسمى منزلةً إلى ما دونه). كما تقتضي المقامية في التلقيب عدم الإكثار من نعوت السلطان في الكتابةِ إليه؛ وإنما يُقتَصَرُ على ما يكون فيه كتلقيبه بالعالِم العادِل. أما في الكتابةِ عنه فكلما كثُرت النعوت؛ كان هذا من قبيل التشريف من السلطان للمكتوب إليه. وإذا كان المكتوب عنه "خليفةً" مثلا، لُقِّبَ في الكتب الصادرة عنه بأمير المؤمنين، وتُخُيِّر له من الألفاظ ما يناسب العتبات العالية ومحل الشرف، كما في "جرَى أمرُ أمير المؤمنين في كذا"، و"أوعز أمير المؤمنين إلى فلان بكذا"، و"اقتضى رأي أمير المؤمنين كذا". ويُخاطَب "بالديوان العزيز"، و"المقام الأشرف"، و"الجانب الأعلى أو الشريف". ويخاطب السلطان "بمولانا"؛ لأنها تخصُّه وحدَه، ولا يجوز مع مقامه الخطاب

(١) انظر: علي بن خلف، مواد البيان، مرجع سابق، ص: ٣٣٥.

(٢) انظر: صبح الأعشى، ج: ٦، ص: ٢٩٢.

"بسيدنا"؛ لأنها تخصُّ أرباب المراتب الدينية والديوانية . كما يوضح القلقشندي مما جرت عليه سُنَّة المكاتبات. أما إذا كان المكتوب عنه ملكًا؛ فيكون التعبير عنه **بنون** الجمع للتعظيم، كما في "اقتضت آراؤنا الشريفة كذا"، و"برزت مراسيمنا بكذا"؛ لاختصاص هذه "النون" بذوي التعظيم دون غيرهم. ويكون اختتام الكتابة للأكابر بمثل "فنحيط علمه بذلك"، ولمن دونهم "فنحيط بذلك علمًا"، وللأصاغر "فليعلم ذلك ويعتمده".

(٤.٢.٤) ما يتعلق بمراتب التناصِّ، بإيراد آيات القرآنية في معنى ما يُكتب فيه من مناسبات في صدور الكتب الصادرة من الأدنَى إلى الأعلى، ولا تورَد في مكاتبات الأعلى إلى الأدنى. ولا يُتمثَّل من الشعر بشيءٍ في المكاتبات الصادرة عن الملوك والصادرة إليهم؛ إجلالا لهم ومراعاةً لرسميَّة السياق، أما في مكاتبات الملوك إلى من ضاهاهم فلا مانعَ من التمثُّل بأبيات الشعر؛ تطريزًا للنثر بالنظم. ومما يثير الإعجاب ما رصده القلقشندي من مقاصد احتياج الكاتب إلى ذلك في كتابته، ومما جرت عليه عادة الكُتاب في كيفية استعمال الآيات القرآنية والأحاديث الشريفة والأبيات الشعرية والتصرف فيها استشهادًا، أو تضمينًا، أو تلميحًا. فمن المقاصد التواصليَّة (أو التداوليَّة) لتوظيف الآيات القرآنية ما اقتبسه القلقشندي عن ابن الأثير (في المثل السائر) من أنَّ الآيات إذا ضمنت "في أماكنها اللائقة بها، ومواضعها المناسبة لها، فلا شبهة فيما يصير للكلام من الفخامة والجزالة والرونق"[(١)]. وعن شهاب الدين الحلبي (في حُسن التوسُّل) قوله: "ومن شرف الاستشهاد بالقرآن الكريم إقامة الحجة، وقطع النزاع، وإذعان

(١) انظر: ابن الأثير، المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، قدَّمه وعلَّق عله: أحمد الحوفي وبدوي طبانة، دار نهضة مصر، القاهرة، د.ت، ج: ١، ص: ٦١.

الخصم"[١]. ومقصد الاستشهاد بالحديث النبوي على الأحكام والأمثال والسِّيَر والآداب أن "الدليل على المقصد إذا استند إلى النص قويت فيه الحجة، وسلَّم له الخصم، وأذعن له المُعاند؛ والفصاحة والبلاغة إذا طُلبت غايتها فإنها بعد كتاب الله في كلام من أوتي جوامع الكلم"[٢]. وحاجة الكاتب إلى معرفة خُطَب العرب أنه إذا أكثر من حفظها وعلم مقاصدها؛ "اتسع له المجال في الكلام وسهلت عليه مستوعِرات النثر، وذللت له صعاب المعاني، وفاض على لسانه في وقت الحاجة ما كمن في ذلك بين ضلوعه فأودعه في نثره وضمنه في رسائله، فاستغنى عن شغل الفكر في استنباط المعاني البديعة، ومشقة التعب في تتبع الألفاظ الفصيحة، التي لا تنهض فكرته بمثلها ولو جهد، ولا يسمح خاطره بنظيرها ولو دأب"[٣].

---

(١) انظر: صبح الأعشى، ج: ١، ص: ٢٢٨. فمن استشهادهم جواب يعقوب بن عبد المؤمن أمير المسلمين بالأندلس في كتابه للأدفونش ملك الفرنج بالأندلس . حينما كتب إليه الأدفونش يتوعده بالإغارة عليه إن لم يَفِ بالعهود والمواثيق ويرسل إليه بجملة من العبيد بالمراكب والشواني . فكتب إليه جوابا على أعلى كتابه (ارجعْ إليهم فلنأتينهم بجنود لا قبل لهم بها ولنُخرجنَّهم منها أذلةً وهم صاغرون) [النمل: ٣٧]. ومن التضمين قول الشيخ شهاب الدين الحلبي في عهد السلطان: "وجمع بك شمل الأمة بعد أن كاد يزيغ قلوب فريق منهم". وربما اقتصر على التلويح والإشارة خاصة، كقول القاضي الفاضل فيما كتب به عن السلطان صلاح الدين الأيوبي إلى الديوان العزيز ببغداد في الاستصراخ وتهويل أمر الفرنج . رب إني لا أملك إلا نفسي. وها هي في سبيلك مبذولة، وأخي قد هاجر إليك هجرة يرجوها مقبولة.

(٢) انظر: صبح الأعشى، ج: ١، ص: ٢٣٤ – ٢٤٤. ومنه ما أورده القلقشندي من تضمين ابن الأثير في دعاء أحد كُتُبِه . قال: "أعاذ الله أيامه من الغير، وبين بخطر مجده نقص كل خطر. وجعل ذكره زادا لكل ركب، وأنسا لكل سمر. ومنحه من فضله ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر" . تناصًّا مع قوله ﷺ في وصف نعيم الجنة "فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر».

(٣) انظر: السابق، ج: ١، ص: ٢٧١.

والمقصد من حاجة الكاتب إلى شعر العرب والمولدين لما فيه "من غزارة المواد، وصحة الاستشهاد، وكثرة النقل، وصقل مرآة العقل، وانتزاع الأمثال، والاحتذاء في اختراع المعاني على أصح مثال، والاطلاع على أصول اللغة وشواهدها، والاضطلاع من نوادر العربية وشواردها"(١). وأما حاجته إلى معرفة أشعار المحدثين؛ "فللطف مأخذهم، ودوران الصناعة في كلامهم، ودقة توليد المعاني في أشعارهم، وقرب أسلوبهم من أسلوب الخطابة، والكتابة"(٢). وكما يقرر القلقشندي، إن تدبر معاني مثل هذه الأشعار يسوق الكاتب إلى استعملها في محلها وإيراد معانيها على حسب ما يقتضيه الحال.

على هذا النحو جرت سنة العرب في التناص في صناعة الترسُّل، وزادوا على ذلك أن وضعوا معايير للاستشهاد بالتنبيه على القائل، وبالتضمين دون تنبيه، وبالتلميح بتضمين بعض الكلام في المكاتبة على سبيل المحاكاةً، وبحلِّ المنظوم ونثره في الكلام المنثور . مما لا يتسع المقام لتفصيله . إدراكًا لسبك التعبير نصيًّا، وبلاغة التأثير تواصليًّا، وحجة الإقناع تداوليًّا.

(٥.٢.٤) ما يتعلق بمراتب الاقتصاد في المكاتبات لإفادة المعنى من حيث الإيجاز والإطناب والمساواة؛ فالكلام الموجز يناسب "مخاطبة الملوك، وذوي الأخطار العالية، والهمم المستقيمة، والشؤون السَّنيَّة، ... وأما الإطناب فإنه يصلح

---

(١) انظر: السابق، ج: ١، ص: ٣١٩.

(٢) انظر: السابق، ج: ١، ص:٣٢١ . ومن تضمين البيت الكامل من الشعر ما كتب به القاضي الفاضل:

"وصل من الحضرة كتاب به ماء الحياة ونقعه الحيا، فكأني إذ ظفرتُ به الخضر فوقفتُ عنده منه على عقود،

هي الدر الذي أنت بحره ** وذلك ما لا يدعي مثله البحر

ورتعت منه في

رياض يد تجني وعين وخاطر ** تسابق فيها النور والزهر والثمر

للمكاتبات الصادرة في الفتوحات ونحوها مما يُقرأ في المحافل، والعهود السلطانية، ومخاطبة من لا يصل المعنى إلى فهمه بأدنى إشارة"[(١)]. أما لو كانت المكاتبة إلى الأَكْفاء والنظراء والطبقة الوسطى من الرؤساء؛ فلا يحسُنُ بناء المخاطبة على الإيجاز والاختصار الذي يليق بمقام الطبقة العالية، ولا على البَسط والإطناب الذي يناسب كتاب السلطان إلى غيره مما يحسُنُ فيه البسط والإطالة؛ وإنما على مساواة اللفظ للمعنى من غير إيجاز ولا إطناب. وقد بيَّنَ القلقشندي أن البسط والإطناب يَحسُنُ مراعاةً للمقام في موضعين[(٢)]: (١) أن يكون ما يَكتب به السلطان خبرًا يريد تقريرَ صورته في نفوس العامة، كالإخبار بالفتوحات المتجددة في إعلاء الدين والسلطان. فيُبنَى على إشباع القول وإسهاب الألفاظ المترادفة؛ ليعرَفَ قدْرُ النعمة الحادثة. (٢) أن يكون ما يَكتب به عن السلطان في أوقات حركات العدو إلى أهل الثغور؛ فيُبسط القولُ في وصف العزائم، وقوة الهمم، وتقوية القلوب، وبسط الآمال في النصر والظفر. كما تتحقق المقامية في الاختيار التعبيري في هذا السياق المبسوط . كما يوضِّح شهاب الدين الحلبي . "في أمثل كلام وأجله وأمكنه، وأقربه من القوة والبسالة، وأبعده من اللين والرقة"[(٣)]. وأما الإيجاز والاختصار فقد استحسنوه . كما أوضح القلقشندي . في ثلاثة مواضع:

---

(١) انظر: صبح الأعشى، ج: ٢، ص: ٢٦٤. ومنه ما أورده القلقشندي من اختصار المهلب بن أبي صفرة إلى الحجاج في فتح الأزارقة من الخوارج والظهور عليهم، فإنه كتب فيه: "الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي كَفَى بِالْإِسْلَامِ قَصَدَ مَا سِوَاهُ، وَجَعَلَ الْحَمْدَ مُتَّصِلًا بِنِعْمَاهُ، وَقَضَى أَلَّا يَنْقَطِعَ الْمَزِيدُ وَحِيلُهُ، حَتَّى يَنْقَطِعَ الشُّكْرُ مِنْ خَلْفِهِ؛ ثُمَّ إنَّا كُنَّا وَعَدُوُّنَا عَلَى حَالَتَيْنِ= =مُخْتَلِفَتَيْنِ نَرَى مِنْهُمْ مَا يَسَرُّنَا أَكْثَرَ مِمَّا يَسُرُّهُمْ، وَيَرَوْنَ مِنَّا مَا يَسُوءُهُمْ أَكْثَرَ مِمَّا يَسُرُّهُمْ، فَلَمْ يَزَلْ ذَلِكَ دَأْبُنَا وَدَأْبُهُمْ، يَنْصُرُنَا اللَّهُ وَيَخْذُلُهُمْ، وَيُمَحِّصُنَا وَيَمْحَقُهُمْ، حَتَّى بَلَغَ الْكِتَابُ بِنَادِيهِمْ أَجَلَهُ فَقَطَعَ دَابِرَ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ".

(٢) انظر: السابق، ج: ٢، ص: ٢٦٤.

(٣) انظر: حسن التوسل، مرجع سابق، ص: ٩٤.

(١) أن يكون ما يُكتب به من باب **الشكر على نعمة يسبغها سلطانه عليه، وعارفةٍ يُسديها إليه.** فيبنيها ـ كما يوضح ابن خلف في (مواد البيان) ـ على "اللفظ الوجيز الجامع لمعاني الشكر، المشتمل على أساليب الاعتراف والاعتداد؛ فإن إطناب الأصاغر في شكر الرؤساء داخلٌ في باب الإضْجار والإبرام". (٢) أن يكون ما يَكتبُ به التابعُ إلى السلطان ونحوه **في سؤال حسن النظر وشكوى الفقر والخصاصة،** "فيبني القول على الإيجاز ويمزج الشكوى بالشكر والاعتداد بالآلاء، والرغبة في مضاعفة الإحسان والزيادة في البرِّ ... فإنَّ ذلك أعطف لقلب الرئيس، وأدعى إلى بلوغ الغرض. ولا يُكثِر شكوى الحال ورثاثتها، واستيلاء الخصاصة والفقر عليه؛ فإن ذلك يَجمعُ إلى الإضْجار والإبرام شكايةَ الرئيس بسوء حال مرؤوسه، وقلة ظهور نعمته عليه؛ وذلك مما يكرهه الرؤساء ويذمونه". (٣) أن يكون ما يَكتب به التابع إلى المتبوع **من باب التنصُّل والاعتذار،** "فسبيله أن يبني كلامه على الاختصار، ... ولا يصرح ببراءة الساحة عن الإساءة والتقصير؛ فإن ذلك مما يكرهه الرؤساء من أتباعهم؛ لأن عادتهم جارية بإيثار اعتراف الخدم بالتقصير والتفريط، ... ليكون لهم في العفو عند الإقرار موضع مِنَّة مستأنفة"[(١)].

(٦.٢.٤) ونخلص من هذه الاقتباسات إلى التأكيد على إدراك العقلية العربية للمقاميَّة اصطلاحًا ومفهومًا، وإدراكهم لما تقتضيه من تحقُّقات لغوية على مستوى البنية النصية الداخلية (أو ما يمكن تسميته نصيَّة الخطاب)، وما تفيده من مقاصد تواصلية على مستوى تداولية الخطاب (أو ما يمكن تسميته خطابيَّة النَّص). وهو ما تسهل مقاربته بما اختُلِفَ فيه حتى استقر حديثًا في المناهج اللغوية والنقدية مما أسماه أستاذنا د. تمام حسان ـ بالتعبير الموروث ـ ما تحيط به المعرفة ولا تُدركه الصفة، أو ما يُشم ولا يُفرك. كما أن هذه الاقتباسات (من طرائق تحقق المقامية في البنية اللغوية والمعنى التواصلي للنص) لتوضح مدى إدراك العرب

(١) انظر: علي بن خلف، مواد البيان، مرجع سابق، ص: ٩٦-٩٧.

القدامى لما سبقت الإشارة إليه من الخصائص التي ينبغي أن تتوفَّر في النص (كما اقترحها دي بوجراند ودريسلر) وهي: **الكفاءة** (في تحقيق التواصل النصِّي بالحد الأدنى من التعبير، أي بالاقتصاد اللغوي)، **والفعاليَّة** (مدى نجاح النص في تحقيق الهدف التواصلي)، **والملاءمة** (مدى توافق النص مع الموقف أو سياق الحال وتَحقُّق معايير النصية)؛ بل لتؤكد إدراكهم للوظيفة التواصلية للغة التي لا تكمن فحسب في البنية التركيبية للجمل (نحو النص)؛ وإنما في البنية الأسلوبية (أسلوبية النص) والبنية التداولية (تداولية النص)، كما يتجلى في الملاحظات الآتية:

أولا. إدراك المعايير الاتصالية العامة (إستراتيجيات إنتاج النص) أو ما أسماه القلقشندي (الأدوات): إذ يستوقف المدقق في صبح الأعشى ما رصده القلقشندي من الأمور العلمية التي يحتاجها الكاتب، وأجملها في سبعة عشر نوعًا[(١)]، وهي: المعرفة باللغة العربية، وباللغة العجميَّة، وبالنحو، وبالتصريف، وبعلوم المعاني والبيان والبديع، وحفظ كتاب الله العزيز، والاستكثار من حفظ الأحاديث النبوية، وبخطب البلغاء وأساليب الخطباء، وحفظ جانب من مكاتبات الصدر الأول، والأشعار الرائقة، والأمثال، ومعرفة أنساب الأمم من العرب و العجم، ومفاخرات الأمم ومنافراتهم ومحاوراتهم ومناقضاتهم، وأيام الحروب الواقعة، وأوابد العرب، وعاداتهم، والنظر في كتب التاريخ والمعرفة بالأحوال، وبخزائن الكتب المصنَّفة وأنواع العلوم. ثم فصَّل القلقشندي وجوه حاجة الكاتب إلى هذه الأمور العلمية ومقاصدها وطرائق توظيفها وتصريفها. وهو ما يقارب ما اصطلح عليه اللغويون حديثًا إستراتيجيات إنتاج النص، فمنتج النص (كما يوضح فولفجانج في كتابه مدخل إلى علم لغة النص) يتوسَّل بمعارف مختلفة، يمكن أن

(١) انظر: صبح الأعشى (الطرف الأول من الفصل الأول من الباب الأول: ما يحتاج إليه من الأدوات)، ج: ١، ص: ١٨٣ –٥٦٦.

تنتظم في ثلاثة أنظمة معرفية: المعرفة اللغوية، والمعرفة الموضوعية الموسوعية، ومعرفة تفاعلية تشمل معرفةً إنجازية ومعاييرَ اتصالية وما وراء اتصالية؛ لضمان الإفهام والحيلولة دون معارضات الاتصال، ومعرفة أبنية النص الكلية أو أنواعه(١). كما أن كل نسق من هذه الأنساق المعرفية يقتضي معرفة إجرائية بطرائق استدعاء هذه المعارف (المكتسبة والمختزنة في الذاكرة) وتصريفها بما يناسب الحدث التواصلي وسياقه والهدف منه والمشاركين فيه (وهي ضروريات إنتاج النص). واللافت للنظر اعتراف فولفجانج بأن هذه الإستراتيجيات ومبادئ عملها ما تزال إلى حد بعيد في مراحلها الأولية. فإذا كانت المعرفة اللغوية والمعرفة التفاعلية قد حظيتا في السنوات الأخيرة بنصيب مرضٍ من الدراسات والبحوث التي تؤصل لهما وتبين مدى ضرورتهما في إنتاج النص وتفسيره؛ فإن المعرفة الموسوعية ما يزال تأطيرها وحصرها لا يمكن إلا بصعوبة بالغة، وما يزال البحث فيها غيرَ قادر على تقديم اقتراحات مرضية. وهذا ما يثير إعجاب المدقق في أصول المكاتبات في الموروث العربي وما فصَّله القلقشندي من أدوات الكاتب المعرفية التي تقارب حديثًا أنظمة إنتاج النص والمعايير الاتصالية العامة، علاوةً على تمكُّن القلقشندي من حصر المعارف الموسوعية التي يحتاجها الكاتب (منتج النص)، وتفصيل الإجراءات التطبيقية لكيفيَّة توظيفها نصيًّا وتداوليًّا في السياق التواصلي؛ مما يقف دليلا على إدراك العقلية العربية لمفهوم النص إنتاجًا واتصالًا وتلقيًا.

ثانيًا. إدراك البنية العميقة للنص: تجاوز البنية التركيبية إلى البنية التداولية

وهذا ما يقودنا إلى قضيةٍ منهجية أكثر عمقًا، وهي تصور العقلية العربية (من خلال أصول المكاتبات الإنشائية) للوظيفة النصيَّة. فإذا كانت المناهج الحديثة قد

(١) انظر: مدخل إلى علم لغة النص، فلوفجانج هاينه مان، وديتر فيهفجر، ترجمة وتعليق: سعيد بحيري، زهراء الشرق، القاهرة، ٢٠٠٤، ص: ١٢٦.

قدمت كثيرًا من نماذج إنتاج النص وعناصر بنائه وآليات تحليله وطرائق تفسيره؛ فإن النظرة الفاحصة في معظم هذه النماذج تعطي انطباعًا مؤداه أن هذه المحاولات تنطلق بنيويًّا من البنية التركيبية للجملة (أي من نحو الجملة) على أن النص هو سلسلة من الجمل المتتابعة؛ وبالتالي يمكن توصيف عمل هذه النماذج بأنها قواعد تولِّد جملًا داخل النص (جملًا مترابطة نحويًّا، منسجمة دلاليًّا، تحكمها علاقات توليدية وتفسيرية)، فإذا كان نحو الجملة يصف قواعد بنية الجملة؛ فإن نحو النص يتوسَّع ليصف جودة سبك النص بالقواعد ذاتها، انطلاقًا من مماثلة النصوص للجمل في بنيتها. والاقتصار على أشكال تنظيم النصوص والإشارات النصية قد اختزل النص . وفق تعبير ايزنبيرج . في "وحدات جاهزة منتهية منغلقة على نفسها؛ إذ توصف النصوص بمعزل عن المشاركين في عملية الاتصال من خلالها". كما أن هذه النظرة الضيقة لم تقدِّم إجابة مرضية عن كيفيَّة عمل النصوص، وأين يكمن المعنى التواصلي في النص؟ ومن هنا حُكم على هذه النماذج بالمحدوديَّة من ناحية، وبعدم إمكانية تطبيقها بشكل موسَّع على عدد كبير من النصوص وبخاصة النصوص المتحاورة (كالأجوبة والردود على الشكاوى والالتماسات والدعوات)، أو النصوص المتداخلة (كالتوقيعات ونحوها)، أو الحوارات التي تقتضي مداخل تداولية لإدراك المعنى. فالمدقِّق في أصول المكاتبات يستوقفه تجاوز القلقشندي (من خلال الاعتبارات المقامية في المكاتبات) لما يُعرَف بالبنية التركيبية (نحو النص) إلى الوظيفة التداولية (تداولية النص). أو بعبارة أخرى، يمكن الحكم على النظرة المنفتحة **للمقامية** (والمقصديَّة) في أصول المكاتبات بأنها نموذج يولِّد نصوصًا كُليَّة؛ لا مجرد قواعد (أو أنماط) تولِّد جملا داخل النصوص. فإذا كانت البنية العميقة للنص (بمفهوم تشومسكي) تنعكس في بنىً سطحية لا متناهية؛ فإن ما أسماه القلقشندي "**المقاصد الجليلة**" يقارب مفهوم البنى العميقة (أي المعاني الكليَّة) في المكاتبات، وأن تحقُّقاتها

الأسلوبية في مَطالع المكاتبات ومقدماتها ومتونها (إلى جانب التحققات الأسلوبية للمقامية) . ليقارب مفهوم البنَى السطحيَّة في النص. وهذا التصور العربي يوافق ما ذهب إليه هاليداي من أن النصَّ وحدة معنى وليس وحدة شكل (في إشارة إلى التحول من نحو النص إلى دلالة النص). ولعل هذا الفهم لطبيعة عمل النص هو ما حمَلَ اللغويين إلى تطوير نماذج التحليل النصي؛ بحيث تتجاوز محدوديَّة (البنية التركيبية) بإضافة أبعاد دلالية (تتعلق بمعنى النص) وتداولية (تتعلق بالمتلقي) لاستيفاء التحليل النصِّي جوانب الوظيفة التواصلية: الكفاءة والفعاليَّة والملاءمة (كما سبقت الإشارة).

إلى هنا يكون التناول قد قارب أحد المعايير النصيَّة (معيار المقاميَّة) في أصول وتحققاته الأسلوبية على مستوى البنية الداخليَّة (مراتب الاختيارات التعبيرية، والدعاء، والتلقيبِ، والتناصِّ، والاقتصاد اللغوي)، ووظائفه التواصليَّة على مستوى البنية الكليَّة؛ بما يبين إلى أي مدى أدرك العرب القدامى ما استقر في الاتجاهات الحديثة حول إستراتيجيات إنتاج النص، وكيفية عمله، وأين يكمن المعنى النصِّي . إلى الحد الذي يمكننا معه الحكم بأن العقلية العربية (من خلال أصول المكاتبات) قد قدمت نموذجًا لتوليد النصوص يتجاوز البنية التركيبية للنص إلى البنية التداولية للمعنى التواصلي في النص. وهذا يقودنا (في العنصر الآتي: ٣.٤) إلى تناول الأبعاد التداوليَّة في أصول المكاتبات.

(٣.٤) المبادئ التداولية في خطاب الترسل:

التداولية كما يُعرِّفها جورج يول George Yule في كتابه "دراسة اللغة" هي دراسة المعنى غير المباشر أو ما لم يُقَل أو يُكتَب؛ ولهذا يعتمد منتِج النص (أو الخطاب) على عدد من الافتراضات (السابقة) المشتركة في عملية التواصل. وتحليل هذه احتمالات إدراك هذه الافتراضات يكشف إلى أي مدىً يكون المعنى

التواصلي أبعد من مجرد المعنى الحرفي[١]. والمعنى التواصلي بهذا المفهوم يقتضي تحليل الاستعمال اللغوي في ضوء السياق الاجتماعي الخارجي (بما يتضمنه من مرسل ومتلقٍ ورسالة وقناة اتصال وأعراف). وهو ما يُعرَف في الموروث العربي بالمقام، وقد تبيَّن في العنصر (٢.٤) كيف أن تصور العرب لمفهوم المقام (أو المقامية) يتحكم في عملية إنتاج النص المكاتباتي، إلى الحد الذي يؤكد التصور الكلي (المتعدد المستويات) لدى العرب القدامى لآليات الوظيفة التواصلية للغة، متجاوزًا الحدود الشكلية (البنيوية) لصناعة الكتابة والترسل (إفادة المعنى مع التحسين والتزيين) إلى آفاق التلقي (إفهامًا وتأثيرًا وإقناعًا) بمراعاة السياق الاجتماعي (المقام) بالوجه الذي يجعله معيارًا أصيلا يحكم الاستعمالات اللغوية. فالمدقق في أصول المكاتبات . كما سبقت الإشارة (في العنصر ١.٤)، يستوقفه عدد من المبادئ التداولية التي تحكم التعبير اللغوي في سياقه التواصلي (الاجتماعي) Context-dependent Aspects، فيما يقارب (في تصورها) مفهوم التداولية الاجتماعية Sociopragmatics[٢]؛ إذ تتمحور (هذه المبادئ) حول قوانين الاستعمال اللغوي (للاختيارات التعبيريَّة بمفهومها الواسع) في خطاب المراسلات تبعًا لسياقها الاجتماعي (وما يتضمنه من عوامل تحكم هذه الاختيارات وتوجِّه دلالاتها التواصلية)، أي أن التداولية الاجتماعية تنطلق من السياق الاجتماعي إلى الاستعمال اللغوي وتحققاته اللفظية والتركيبية والأسلوبية. ويمكن مقاربة المبادئ التداولية في أصول المكاتبات بنظرية الملاءمة ومبدأ التعاون لجرايس (في ١.٣.٤)، و أفعال الكلام (الأفعال الكتابية) وقوتها

(١) Yule. G. (٢٠١٠). *The Study of Language*, Cambridge University Press, Cambridge. P: ١٢٨.

(٢) في مقابل التداولية اللغوية Linguistic Pragmatics التي تركز على تحليل أثر الاستعمال اللغوي المعيَّن في تشكيل المعنى الاجتماعي، أي تنطلق في التحليل من الاستعمالات اللغوية إلى ما تحققه من معانٍ يفسرها السياق الاجتماعي.

الإنجازية لأوستين وسيرل (في ٢.٣.٤)، وأفعال الكلام الكبرى لفان دايك (في ٣.٣.٤)، والتأدب والتلطُّف لجيفري ليتش (في ٤.٣.٤).

(١.٣.٤) نظرية الملاءمة ومبدأ التعاون لجرايس

أشار القلقشندي إلى بعض القيود التداولية التي تحكم الوظيفة التواصلية للغة (وهي تحميل البنية النصية وظائفَ تداولية وخطابية تناسب مقامية التلقي)، بما يحقق التماسك التداولي Pragmatic coherence أو الهدف الضمني لمبدأ التعاون The cooperative principle الذي اقترحه جرايس؛ فالموقف التواصلي يقتضي تعاونًا من المتلقي لفهم المقاصد الضمنية الكامنة وراء التعبير اللغوي، أي التَّضمين Implicature ـ باصطلاح جرايس، فعملية التلقي لا تقتصر على فهم السطور (المعنى المباشر للنص)؛ وإنما تتجاوزه إلى ما بين السطور، وإلى ما وراء السطور (المعاني الضمنية للخطاب). ومن ثمَّ، فهناك أبعاد تداولية (وخطابية) تحكم البنى التعبيرية عن المقاصد في النص. فافتتاح المكاتبة "**بحمد الله**" . مثلا . يكون داعية لاستماع ما بعده؛ لأن النفوس تتشوَّف إلى الثناء على الله تعالى. والافتتاح أو الختام **بتقبيل الأرض**[(١)]، **أو الدعاء**

(١) وابتداء المكاتبة "بتقبيل الأرض" أعلى رتبةً بالنسبة إلى المكتوب إليه. ومنه ما كتبه القاضي الفاضل إلى السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب في صدر كتاب تهنئة بمولود: "المملوك يقبل الأرض بالمقام العالي الناصري، نضر الله الإسلام بمقامه..." انظر: صبح الأعشى، ج:٨، ص: ١٧٥. ومن طرائق التقبيل: تقبيل اليد، أو الباسط الشريف، أو الباسطة الشريفة (بالتأنيث)، فإن كان المكتوب إليه من أرباب السيوف، كتب: يقبل الباسطة الشريفة، العالية، (لا زالت الآمال لائذة بكرمها، عائذة بحرمها، مستنجدة على جدب الأيام بسقي ديمها) . ج:٨، ص: ١٩٢.

للمكتوب إليه[١] . كما يعلل القلقشندي . يكون لاستجلاب الخواطر وتأليف القلوب؛ بمعاطاة واجب الأدب بما يقتضي التعزير والتوقير"[٢]. وهي معانٍ ضمنية (غير مباشرة) يدركها المتلقي في السياق التواصلي. ومن قواعد مبدأ التعاون لجرايس قاعدة الأسلوب Maxim of manner، حيث الوضوح التعبيري وتجنب اللبس والإبهام، ومبدأ الاقتصاد اللغوي "كُن مُقتصِدًا Be brief". ومبدأ المناسَبَة Maxim of relation؛ حيث مناسبة الكلام للموضوع ولسياق الحال، وهو ما يُعرَف حديثًا بنظرية الملاءمة Theory of relevance التي تدرس الاستعمال اللغوي في سياقه الخارجي. وهو ما يقارب أو يطابق مفهوم المناسَبَة (الملاءمة) في التراث العربي [٣]. وقد أشار القلقشندي . في أكثر من موضع، من بينها

---

(١) الدعاء بحسب حال المكتوب إليه، مثل أن يكتب لمن هو من أرباب السيوف، أعزَّ اللهُ تعالى نصرَه، أو عزَّ نصرُه. ولمن هو من رؤساء الكتاب: أسبغ الله ظلالَه. ولمن هو قاضي حكم: أعز الله أحكامَه. ولمن هو من مشايخ الصوفية: أعاد الله من بركاته. السابق: ج: ٦، ص: ١٩١.

(٢) راجع: الأصل الأول، ج: ٦، ص: ٢٦٣، والأصل الحادي عشر، ص: ٣٠٠.

(٣) اقتبس الجاحظ إشارة بشر بن المعتمر إلى مفهوم المناسبة أو الملاءمة في أقدار المعاني لأقدار المخاطَبين والحالات، حيث قال: "ينبغي للمتكلم أن يعرف أقدار المعاني، ويوازن بينها وبين أقدار المستمعين وبين أقدار الحالات، فيجعل لكل طبقة من ذلك كلاما ولكل حالة من ذلك مقاما، حتى يقسم أقدار الكلام على أقدار المعاني، ويقسم أقدار المعاني على أقدار المقامات، وأقدار المستمعين على أقدار تلك الحالات" . انظر: الجاحظ، البيان والتبيين، مكتبة الهلال، بيروت، ١٤٢٣ هـ، ج: ١، ص: ١٣١. وهو ما أشار إليه القلقشندي في توجيهه إلى مراعاة رتب المكتوب عنهم والمكتوب إليهم من أعيان الدولة بمملكة الديار المصرية، وما يستحقه كل منهم من رتب المكاتبات: " اعلم أن المكتوب عنهم من أعيان الدولة على طبقات، لكل منهم مكاتبات بصدر يختص به، إلى من فوق رتبته أو مساوٍ له في الرتبة أو دونه فيها، مرتبةً على ترتيب المكاتبات الصادرة عن الأبواب السلطانية إلى أهل الدولة: ..." . انظر: صبح الأعشى: ج: ٨، ص: ٢١٧).

المطالع والخواتيم . إلى هذه المبادئ ضمن موجبات التحسين في المكاتبات (من سهولة اللفظ، وصحة السبك، ووضوح المعنى، وتجنب الحشو) [(١)]، ومراعاة المقامية في **الاختيار التعبيري** (مراتب الألفاظ)، وفي **إيراد الأدعية** المناسِبة (لمراتب المخاطَب، ومقصِد المكاتبة)، وفي **التلقيب** (تخيُّر ما يليق بالمكتوب له من الألقاب المناسبة)، وفي **التناص** (إيراد آيات من القرآن أو أبيات من الشعر أو الأمثال ونحوها في المكاتبة)، وفي **الاقتصاد اللغوي** (الإيجاز والإطناب بما يُناسب جليل المقام ومناسبة المكاتبة)؛ بما يحقق الغاية التواصلية في خطاب الترسل (كما سبق تفصيله في ٢.٤).

(٢.٣.٤) أفعال الكلام (الأفعال الكتابية) وقوتها الإنجازية لأوستين وسيرل

ترتبط دراسة أفعال الكلام (أو الأفعال الكتابية) بالمقصديَّة الخطابية (مقاصد منتج الخطاب) "فالمقصد يحدد الغرضَ من أي فعل لغوي، كما يحدد هدفَ المرسل من وراء سلسلة الأفعال اللغوية التي يتلفظ بها، وهذا ما يساعد المتلقي على فهم ما أُرسل إليه"[(٢)]. وإذا كان Austin أوستن (في تصنيفه للأفعال الكلام) قد أَوْلَى اهتمامًا كبيرًا بظاهر (لفظ) الفعل على حساب (مضمونه الإنجازي)؛ فإن تلميذه Searlجون سيرل قد استدرك هذا البُعد بتركيزه على القوة المتضمَّنة في الأفعال في سياقها الاجتماعي (وليس سياقها التركيبي فحسب)، وهذا ما دفع فان

(١) ومنه ما كتبه أبو الفضل بن العميد عن ركن الدولة بن بويه، إلى من عصى عليه، مُفتتِحًا كتابه بقوله: «كتابي إليك، وأنا متردد بين طمع فيك وإياس منك، وإقبال عليك وإعراض عنك؛ فإنك تدل بسالف خدم أيسرها يوجب رعاية، ويقتضي محافظة وعناية؛ ثم تشفعها بحادث غلول وخيانة، وتتبعها بألف خلاف ومعصية، أدنى ذلك يحبط أعمالك، ويسقط كل ما يرعى لك». السابق، ج:٦، ص: ٢٦٤.

(٢) نعمان بو قرة، نحو نظرية لسانية عربية للأفعال الكلامية: قراءة استكشافية للتفكير التداولي في المدونة اللسانية التراثية، مجلة اللغة والأدب، جامعة الجزائر، ع: ١٧، ٢٠٠٦، ص: ١٧٠.

دايك إلى اعتبار الأفعال الإنجازية تفاعلا اجتاعيًّا (تواصليًّا) يقتضي قدرةً من المرسل على التعبير عن قصده، واستجابةً من المتلقي لتأويل الرسالة. ومن ثمَّ ميَّز سيرل بين الأفعال الإنجازية المباشرة أو الحرفية Literal (التي يطابق مضمونها الإنجازي قصدَ المرسل مطابقة حرفية لما يريد التعبير عنه)، والأفعال لإنجازية غير المباشرة أو غير الحرفية Non–literal (التي تعتمد في مضمونها الإنجازي على إستراتيجية استنتاج المتلقي للقصد Inference strategy؛ إذ تخالف قوتها الإنجازية قصد المرسل باستخدام أسلوب غير مباشر للمعنى المراد). كما قدَّم سيرل خمسة أصناف للأفعال الإنجازية تمثل الأغراض الوظيفية الكبرى في التواصل اللغوي، وهي الأفعال الدالة على: (١) الإخباريَّات Assertives (ذات الأهداف التبليغية للمعلومات والأحداث والوقائع)، (٢) والتوجيهيَّات Directives (ذات الأهداف الطلبية أو الآمرة لتوجيه المخاطب إلى فعلٍ ما)، (٣) والالتزاميَّات Commissives (التي تفيد التزام المرسل بموقفٍ ما)، (٤) والتعبيريَّات Expressives (وفيها يعبر المرسل عن مواقفه ومشاعره تجاه المخاطَب)، (٥) والإعلانيَّات Declarations (التي يترتب عليها تغيير في الواقع القائم). كما اقترح سيرل أن لكل غرض من هذه الأغراض درجة من القوة تكمن في التعبير ذاته؛ فإذا كان الغرض الإنجازي من الأمر والرجاء هو القيام بأمر ما؛ فإن القوة الإنجازية تختلف في أحد الأسلوبين عنها في الآخر. والسؤال الذي أود الإجابة عنه هنا: هل تضمنت أصول المكاتبات إلماحات إلى مفهوم الأفعال الكلامية أو قوتها الإنجازية؟ وقبل أن أجيب عن هذا السؤال، أود التأكيد على مبدأ عام وهو أن المطالع لنصوص المكاتبات (والأصول الكلية الحاكمة لها) يدرك أنها وَسِعت كل هذه الأغراض التواصلية التي أجملها سيرل ومن قبله أوستن (وإن كانت بتصنيف مختلف قليلا) ومن بعدهما سائر اللغويين والتداوليين. ولهذا فسأقتصر (من قبيل التمثيل النوعي لا الاستقصاء الكمي) في إجابة هذا السؤال

على بعض الاقتباسات من صبح الأعشى في سياق ما ينبغي على الكاتب مراعاته في الأغراض التواصلية المختلفة في المكاتبات، ووسائل تعديل القوة الإنجازية في التعبير عنها.

فقد نقل القلقشندي عن عليٍّ بن خلف الكاتب في "مواد البيان" أن **المكاتبات بالأوامر والنواهي** عليها "مدار أشغال السلطان في أعماله؛ لأنها النافذة في تصريف الأمور وتنفيذ المراسيم ولايةً وعمالةً". ويُفهم من هذا أن غالب مكاتبات السلطان تحوم حول الأفعال الإنجازية التوجيهية (أو الآمرة) بمفهوم سيرل. كما أشار القلقشندي إلى الوسائل اللغوية لتعزيز القوة الإنجازيَّة[(١)] في هذا النوع من المكاتبات، ومنها **(١) تأكيد القول بهما**؛ فينبغي للكاتب "أن يؤكد القول في امتثال ما أُمِر، والعمل عليه والإنفاذ له، والانتهاء عما نُهِى عنه، والحذر من الإلمام به". ويتصل بتأكيد القول **(٢) جزمُ العبارة** "جزمًا تامًّا لا يُتمكَّن معه من الإخلال ببعضهما والنقص فيهما لهوىً". بالإضافة إلى **(٣) وسيلة المبالغة** بما يُضيِّق العذرَ، ومتى وقع تقصيرٌ أو تثاقلٌ عما حُدِّد فيهما؛ فإنَّما يُمثَّل ذلك بمُثُلٍ جامِعةٍ مع تفنُّن المعاني التي يَأمر بها ويَنهى عنها"[(٢)].

ومما يلفت النظر وتجدر ملاحظته؛ لما فيه من دلائل على إدراك العقلية العربية لنظرية الملاءمة، والوظائف التواصلية للأفعال الكلامية (الكتابية)، ووسائل تعديل قوتها الإنجازية . ما أصَّله القلقشندي من مراعاة المقام (السياق الاجتماعي) في التعبير (اللغوي) عن الأغراض التواصلية؛ إذ تختلف رسوم المكاتبات (أيْ بنيتها الأسلوبية وما تقتضيه من اختيارات تعبيريَّة) بحسب اختلاف أقدار المكتوب

---

(١) أحد أبعاد التمييز بين درجات الأغراض الفرعيَّة لأحد الأغراض الوظيفية الكبرى في الاستعمال اللغوي (الإخبار، والتوجيه، والالتزام، والتعبير، والإعلان)كما يحددها المعنى في السياق التواصلي . انظر: تعديل القوة الإنجازيَّة: دراسة في التحليل التداولي للخطاب، د. محمد العبد، مجلة فصول، ع: ٦٥، ٢٠٠٥، ص: ١٦٢. ١٣٤.

(٢) صبح الأعشى، ج: ٨، ص: ٣١٣.

إليهم، وأحوالهم، والغرض من المكاتبة. فالعادة ألّا تُنفَذ كتبُ المعاتبة واستصلاح مَن لم يمتثل للمراسيم السلطانية وشقَّ عصا الأوامر والنواهي . إلا إلى "من ترجى إنابته، وتؤمل مراجعته، فأما من وقع الإياس من استصلاحه، ودعت الضرورة إلى كفاحه؛ فلا حاجة إلى معاتبته، ولا وجه لمكاتبته"[١]. وفي هذا الضرب من المكاتبات، يورد القلقشندي ما أصَّله ابن خلف في رسمها من **الافتتاح** بالتحميد المناسب لمعنى الكتاب، والصلاة على النبي ﷺ؛ بما يدعو إلى **إيناسِه**، ويزيل أسباب استيحاشِه، **ومعاودة النظر** في أمره، **ويذكِّره** ما أُسدي من العوارف إليه، **ويبصِّره بعاقبته، وألّا يغترَّ** بمن يُزين له عاجل الآجل، ثم يورد ما **يُرغِّبه** في حقن دمه، وصيانة حرمه، **وأن يرجع** إلى الفناء الذي لم يزل يحرزه.[٢] أما في المكاتبات السلطانية **بالدعاء إلى الدين**، نصَّ القلقشندي على رسمها **بالافتتاح** بحمد الله، والصلاة على رسوله محمد ﷺ و**الإفصاح** عن دلائل نبوته، وبراهين رسالته، ثم يتبع ذلك **بالدعاء** إلى الدين والحض عليه، **وإيضاح** ما في التمسك به من الرشاد في داري المبدأ والمعاد، **والتبشير** بما وعد الله به المستجيبين له، والداخلين فيه، من تمحيص السيئات، ومضاعفة الحسنات، وعز الدنيا وفوز الآخرة، **والإنذار** بما أوعد الله به الناكبين عن سبيله، العادلين عن دليله، من الإذلال في هذه الدار، والتخليد بعد العرض عليه في النار، وتصريف المخالفين بين الرغبة والرهبة، في العاجل والمغبة. [٣]

ومن وسائل تعزيز القوة الإنجازية في هذه الأغراض (الدعوة، والإفصاح، والإيضاح والتبشير، والإنذار) ما وجَّه به القلقشندي نقلًا عن ابن خلف من ضرورة أن **يتأنَّى** الكاتب فيما يورده فيها (من اختيارات تعبيرية)؛ ليقع في المواقع

---

(١) السابق، ج: ٨، ص: ٢٦٦.

(٢) السابق، الصفحة نفسها.

(٣) انظر: صبح الأعشى، ج: ٨، ص: ٢٤٨.

اللائقة به (تأثيرًا)، **وأن يجلو** الحجج في أحسن المعاريض (إقناعًا)، **وأن يُفصح** عنها بأقرب الألفاظ من النفوس (إفهامًا)؛ فإنه (أي الكاتب) إذا وفق لذلك؛ ناب كتابُه منابَ الجيوش والأجناد، وأقرَّ السيوف في الأغماد[(١)]. ومن أصول المكاتبة **بالاعتذار عن السلطان في الهزيمة** "أن يقتضب الكاتب له **المعاذيرَ** التي تُحسِّن أحدوثته، وتستر زلته، **والحججَ** التي تعيد اللائم عاذرا، والذام شاكرا، **وتوجب التقريظ** من حيث يجب التأنيب، **والإحماد** من حيث يستحق التذنيب"[(٢)]. وهنا يشير القلقشندي إلى أحد شروط الملاءمة[(٣)]Felicity conditions لنجاح الفعل اللغوي في غايته التواصلية، وهو شرط الإخلاص sincerity، أي مدى الصدق في تحقيق التأثير المطلوب في المكتوب إليه؛ بالاعتذار عنه دون "أن يصرِّح بباطلٍ، ولا يطلق كذبًا محضًا، وألا يختلق زورًا يَعلم الناس خلافَه، فتتضاعف الهجنة، وتتكاثف المحنة؛ فإنه لا شيء أقبح على السلطان، وأقدح في جلالة

(١) السابق، ج: ٨، ص: ٢٤٩.

(٢) كأن يعتذر عن الهزيمة في حرب، فيقول: "وقد علمتم أن الحرب سجال، والدنيا دولٌ تُدال، وقد تهب ريح النصر للقاسطين على المقسطين امتحانًا من الله وبلوى، ليجزي الذين أساءوا بما عملوا ويجزي الذين أحسنوا بالحسنى" . السابق، ج: ٨، ص: ٢٩٧.

(٣) التي إذا تحققت في الفعل الكلامي؛ كان ناجحًا في غرضه التواصلي وتأثيره في المتلقي، وإلا أخفق (أو أساء) في أدائه. وقد طور سيرل تصور أوستين لهذه الشروط فأجملها في أربعة شروط، هي: (١) شرط المحتوى القضوي propositional content ويتمثل في فعلٍ مطلوب من المخاطَب في المستقبل، (٢) الشرط التمهيدي preparatory ويتمثل في يقين المتكلم بقدرة المخاطَب على إنجاز الفعل، (٣) شرط الإخلاص sincerity ويتمثل في إرادة المتكلم الصادقة من المخاطَب إنجاز الفعل ،(٤) الشرط الأساسي essential ويتمثل في محاولة المتكلم التأثير في المخاطَب لإنجاز الفعل. . انظر: نحو نظرية عربية للأفعال الكلامية، محمود نحلة، مجلة الدراسات اللغوية، مج: ١، ع: ١، ١٩٩٩، ص: ١٧٣ – ١٧٤.

الشأن، من أن يعثر في كتبه على إفك قد يعلمه بعض من يقف عليه"[١]. ثم يوجِّه القلقشندي إلى تجنُّب هذا الإخفاق في الغرض التأثيري بتوظيف الأساليب التعبيريَّة بأن يعتمد على "حُسن التخلص والتورية عن الغرض، واستعمال الألفاظ التي تدل على أطراف الحال ولا تفصح بحقائقها"[٢].

(٣.٣.٤) أفعال الكلام الكبرى لفان دايك

إن المتأمل في أغراض المكاتبة باستعتاب غير الممتثِل، وهي (الإيناس وإزالة أسباب الاستيحاشِ، ومعاودة النظر في أمره، والتذكير بالمعروف، والتبصير بالعاقبة، والتحذير من الاغترار، والتَّرغيب في صيانة الحرم وفي الرجوع إلى الفناء) . ليُدرك أنها أغراضٌ صغرى تتناوب في التعبير عن غرضٍ أكبر هو (المعاتبة والاستصلاح). وكذلك الأمر في أغراض المكاتبة بالدعاء إلى الدين (وهو الغرض الأكبر الذي يسلُك أغراضًا صغرى متناوبة) وهي (**الإفصاح** عن دلائل النبوة، **والترغيب** في اتباع الرشاد، **والتبشير** بعز الدنيا وفوز الآخرة، **والإنذار** بوعيد الله للعادلين عن دليله). كما يقتضي غرض الاعتذار عن السلطان في الهزيمة (وهو الغرض الأكبر للمكاتبة) أغراضًا صُغرى تتناوب لتأكيده (كاقتطاف المعاذيرَ، ومحاجَّة اللائمين، ودفع التأنيب بالتقريظ، ومحو التذنيب بالإحماد)، وما يجري مجراه في سائر المكاتبات. إن ما يستوقف المدقق هنا هو أن هذه الأغراض الكبرى (التي أشار إليها القلقشندي **بالمقاصد الجليلة**) وما يعبِّر عنها من أغراض صغرى (نبَّه القلقشندي الكُتابَ إلى مراعاتها في رسوم المكاتبات) . لتقارب ما اقترحه فان دايك Van Dijk من **أفعال الكلام الكبرى** Macro-Speech Acts، وهي المقاصد أو الأغراض الكليَّة التي تنجزها

(١) انظر: صبح الأعشى، ج: ٨، ص: ٢٩٧.

(٢) انظر: صبح الأعشى، ج: ٨، ص: ٢٩٧.

(وتفسرها) سلسلة متعاقبة من الأفعال الكلامية المفردة (أو الصغرى) [١]. وهو ما يدل بوضوح على النظرة الكلية لدى العرب للكيفية التي يعمل بها النظام اللغوي على المستوى الأدنى (حيث البنى النصيَّة بتحققاتها الأسلوبية)، والمستوى الأعلى (حيث البنى التداولية والخطابية بوظيفتها التواصليَّة وبقوتها الإنجازية والتأثيرية). وبعبارة أخرى، إن التأصل لرسوم المكاتبات وفق أغراضها الكلية وما يستصحبه كل غرض من سلاسل الأفعالِ الكلامية (الكتابية) التي تُنظَم بما يناسب مراتب الخطاب وبما يحقق الهدف التواصلي للمكاتبة . لدليلٌ على إدراك العقلية العربية لطبيعة عمل الخطاب وخصائصه الوظيفة (كما أطَّرها حديثًا دي بوجراند وغيره من علماء اللغة) وهي الكفاءة والفعاليَّة والملاءمة.

ومما يرجح هذا الحكم . في سياق الحديث عن وظائف الأفعال الكلامية . إدراك **الوظيفة الإعلانية** للأفعال الكتابية وما يترتب عليها من أن اللغة تساوي إنجازَ فعل يترتب عليه تغيير الحال الواقع. فالمدقق في تنبيهات القلقشندي على ما يجب على الكاتب مراعاتُه في مكاتبات البيعات والعهود بالخلافة . يستوقفه التنبيه مثلًا على **قبولِ صاحبِ البيعةِ العقدَ وإجابتِه**؛ إذ لا بد من القبول، وأنه بمجرد (قبول) البيعة؛ **وجبت الطاعة** والانقياد إليه[٢]. ومنها أن ينبِّهَ على **قبول المعهود إليه العهدَ**، فإنه إذا عَهِد الإمام بالخلافة إلى من يصح العهدُ إليه على الشروط المعتبَرة فيه؛ كان العهد موقوفًا على قبول المعهود إليه، **فإنْ قبلَ؛ صحَّ العهدُ، وإلّا فلا**. ويكون **القبولُ بعد موت العاهد**؛ لأنه الوقت الذي يصح فيه نظرُ

---

(١) Van Dijk, T. (١٩٨٠), *Text and Context: Exploration in the Semantics and Pragmatics of Discourse*, London, Longman, P: ٢١٥.

وانظر: النص والخطاب والاتصال، د. محمد العبد، الأكاديمية الحديثة للكتاب الجامعي، القاهرة، ٢٠١٤، ص: ٢١٧.

(٢) السابق، ج: ٩، ص: ٢٨٦ . ٢٨٧.

المعهود إليه[١]. فيما يُعدُّ إشارة واضحة لإحدى الوظائف التعبيريَّة للغة (وتحديدًا الأفعال الكلامية) وهي الوظيفة الإعلانية Declarative function، أي أن اللغة تساوي فعلًا أو حكمًا. أو بعبارة أخرى، يترتب على الاستعمال اللغوي تغيير فوريٌّ في الواقع والحال والصفة، فبمجرد القبول . كما أوضح القلقشندي . يَنفُذ العقد بالدخول في البيعة أو العهد وما يجري مجراه فيكون إعلانًا نافذَ الموجبات والأحكام: كأحكام القضاء، وصيغ البيع، وصيغ الزواج والطلاق، والتنصيب والتعيين، والاتفاقيات والمعاهدات، ونحوها. ولعلَّ من وسائل تعزيز القوة الإنجازية في هذه المكاتبات . كما أشار القلقشندي . مراعاة سهولة اللفظ، وحسن السبك، ووضوح المعنى، وتجنب الحشو، بالإضافة إلى مراتب الدعاء بما يليق بمقام المكتوب إليه والغرض من المكاتبة.

(٤.٣.٤) التأدب والتلطُّف لجيفري ليتش

ومما تجدر ملاحظته في سياق استقراء المبادئ التداولية التي تضمنتها أصول المكاتبات الإنشائية . إشارة القلقشندي الصريحة إلى مظهرَيْن من أبرز المظاهر التداولية، وهما التأدُّب Politeness والتلطُّف أو (التَّخفيف) Mitigation. فقد بيَّن القلقشندي أنَّ من المقاصد ما لا يَحسُن التعبير عنها تصريحًا؛ فنبَّه إلى مراعاة التأدُّب (تعبيريًّا) بتخطي التصريح Explicitness إلى التلويح Implicitness والإشارة إذا اقتضت الحالُ المكاتبةَ "بما لا يجوز كشفه وإظهاره على صراحته مما في ذكرِهِ على نصه هتكُ ستر، أو في حكايتِه اطراحُ مهابة السلطان، وإسماعه ما يلزم منه إخلال الأدب في حقه"[٢]. كما يتحقق مظهر التأدب في مراتب الدعاء والتلقيب . كما سبق البيان والتمثيل . بتخيُّر الأدعية اللائقة برتبة المكتوب إليه وبغرض المكاتبة، وتجنب اللبس وما يُكرَه في الدعاء؛

(١) السابق، ج: ٩، ص: ٣٧١.

(٢) السابق، ص: ٢٨٣.

لغرض تأثيريٍّ يعلله القلقشندي (تداوليًّا) باستجلاب الخواطر وتألف القلوب؛ وبمعاطاة واجب الأدب بما يقتضي التعزير والتوقير [(١)]. وكذلك مراعاة مقام المخاطب في التلقيب Labeling بتخيُّر ما يليق بالمكتوب إليه من الألقاب المناسبة لرتبته. وإذا كان الدعاء والتلقيب من وسائل التأدب، فهما من الوسائل الخطابية لتعزيز القوة الإنجازية في المكاتبات الإنشائية؛ لما يؤديانه من معنىً تأثيريٍّ Affective meaning في المتلقي من ناحية، وما يحملانه من تأثيرات عوامل السُّلطة Power، والمقام التواصلي Situation، والسياق الاجتماعي Social context في إنتاج النص (أو الخطاب) المكاتباتي. وفي تنبيه القلقشندي إلى العدول عن التصريح إلى التَّلميح في التعبير عن النوازل والملمَّات أو ما لا ينبغي إظهارُه صراحةً أو حكايتُه بما يُخلُّ الأدب في حق المكتوب إليه . إشارةٌ صريحةٌ إلى مفهوم التلطُّف Mitigation وهو إحدى الوسائل التواصلية التي يلجأ إليها منتج الخطاب؛ بحيث يكون الأسلوب التعبيري أكثر مقبوليةً وإرضاءً للمخاطَب بتخفيف حدَّة مضمون الرسالة (أو الخطاب)، وبعبارة جيفري ليتش G. Leech (في كتابه: مبادئ التداولية): إننا لا نلجأ للتلطُّف لضَعْف المخاطب؛ وإنما لأن السياق قد يستدعي ذلك، أو أن أهدافنا (التواصلية) تكون هي الدافع الذي يجعلنا نحُدُّ أو نخفِّف من القوة الإنجازية للرسالة[(٢)].

لعل في هذه الوقفات ما يبرهن على تبصرات العرب القدامى بطرائق إنتاج خطاب الترسل وبمكامن القوة التأثيرية وحواملها التعبيرية وفق ما تقتضيه المقاصد ومراتب الخطاب والمقام. وهو ما يبرهن أيضًا على إدراك العقلية العربية لطرائق تدرج الأسلوب المكاتباتي من إفادة المعنى، إلى كمال الإفادة، إلى التحسين والتزيين. إذ تكمن إفادة المعنى في البنية التركيبية للتعبير (وهي سرُّه وروحُه .

---

(١) راجع: الأصل الأول، ج: ٦، ص: ٢٦٣، والأصل الحادي عشر، ص: ٣٠٠.

(٢) Leech, G. (١٩٨٣), *Principles of Pragmatics*, London, Longman, P ٢٦.

بعبارة ابن خلدون في مقدمته، وما يُشار إليه حديثًا بالمحتوى القضوي)؛ "لأنّ التركيب يدلّ بالوضع على معنى، ثمّ ينتقل الذّهن إلى لازمه أو ملزومه أو شبهه".[١] إلا أن أصول المكاتبات تولي المعنى (التواصلي) اهتمامًا يفوق الحلية اللفظية؛ إذ تتجاوز درجة التعبير (لإفادة المعنى والإفهام) إلى درجةٍ أعلى (من كمال الإفادة والتأثير) تتحقق تعبيريًّا فيما سبق تفصيله من مراعاة مراتب الألفاظ، والألقاب، والأدعية، والإيجاز والإطناب، وتعديل القوة الإنجازية للأفعال المعبِّرة عن الأغراض الكتابية، إلخ. ففي توجيه القلقشندي . في الأصل الرابع على سبيل المثال . إلى أن يعرف الكاتبُ "الفرق بين الألفاظ المستعملة في المكاتبات فيضعها في مواضعها" إشارةٌ إلى مناسبة مراتب الألفاظ . ليس لمجرد إفادة المعنى المراد؛ وإنما . لكمال الإفادة بما يحقق الغرض التأثيري. فمنزلة المعاني من الألفاظ كمنزلة "الأبدان من الثياب؛ فالألفاظ تابعة، والمعاني متبوعة، وطلب تحسين الألفاظ إنما هو لتحسين المعاني، بل المعاني أرواح الألفاظ وغايتها التي لأجلها وضعت، وعليها بُنيت؛ فاحتياج صاحب البلاغة إلى إصابة المعنى أشد من احتياجه إلى تحسين اللفظ"[٢]. ولاستيفاء الصَّنعة حقها، يتجاوز التعبير درجةَ كمالِ الإفادة إلى درجة التحسيين والتزيين؛ بمراعاة موجباتها من التسجيع والتجنيس والترصيع ونحوه مما يُحلِّي الخطاب بالتطريزات البديعة، بلا إفراط ولا تفريط؛ فيبدو الخطاب مطبوعًا "كملت طبيعته وسجيّته من إفادة مدلوله المقصود منه، لأنّه عبارة وخطاب، ليس المقصود منه النطق فقط. بل المتكلّم يقصد به أن يفيد سامعه ما في ضميره إفادةً تامّة، ويدلُّ به عليه دلالةً وثيقة. ثمّ يُتبع تراكيبَ الكلام في هذه السجيّة التي له بالأصالة ضروب من التحسين والتزيين بعد كمال الإفادة؛ وكأنّها

(١) انظر: ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، ابن خلدون، تح: خليل شحادة، دار الفكر، بيروت، ١٩٨٨، ص: ٧٦١.

(٢) انظر: صبح الأعشى، ج: ٢، ص: ٢٠٢.

تعطيها رونق الفصاحة من تنميق الأسجاع، والموازنة بين حمل الكلام وتقسيمه بالأقسام المختلفة الأحكام، والتورية باللّفظ المشترك عن الخفيّ من معانيه، والمطابقة بين المتضادّات، ليقع التجانس بين الألفاظ والمعاني، فيحصل للكلام رونق ولذّة في الأسماع وحلاوة وجمال كلّها زائدة على الإفادة"[(١)].

ومما يسترعي التأمل هنا (كما سبقت الإشارة في **٦.٢.٤**) ما أسماه القلقشندي **(الأدوات)**، وهي الأمور العلمية التي يحتاجها الكاتب (في إنتاج خطاب الترسل)، وأجملها في سبعة عشر نوعًا[(٢)]، منها **المعرفة بعلوم المعاني والبيان والبديع**. ثم فصَّل القلقشندي وجوه حاجة الكاتب إلى هذه المعرفة؛ "ليتوصل بذلك إلى فهم الخطاب، وإنشاء الجواب، جاريًا في ذلك على قوانين اللغة في التركيب، مع قوة الملكة على إنشاء الأقوال المركبة"[(٣)]. إن هذا التدرُّج (في التعبير) ليدلُّ دلالةً قاطعةً على إدراك العقلية العربية للوظيفة التواصلية للغة من ناحية، وللقوة الإنجازية للتعبير عن المقاصد بما يحقق الغرض الخطابي من مجرد إفادة المعنى (الإفهام) إلى كمال الإفادة (التأثير) في بنيةٍ نصيَّةٍ بديعةِ الصنعة (والتزيين).

(٤.٤) من مبادئ تحليل الخطاب في أصول المكاتبات:

---

(١) انظر: مقدمة ابن خلدون ، مرجع سابق، ص: ٣٠٠. وفيها يعرِّف ابن خلدون البديعَ بأنه " النَّظر في تزيين الكلام وتحسينه بنوع من التّنميق إمّا بسجع يفصله، أو تجنيس يشابه بين ألفاظه، أو ترصيع يقطع، أو تورية عن المعنى المقصود بإيهام معنى أخفى منه لاشتراك اللّفظ بينهما".

(٢) انظر: صبح الأعشى، ج: ١، ص: ١٨٣.

(٣) وفي حاجة الكاتب إلى معرفة البديع، يقول القلقشندي: "غير خاف أنه إذا مهر فيها وعرف طرقها، أتى في كلامه بالسحر الحلال، وصاغ من ألفاظه ومعانيه ما يقضي له بالفصاحة التامة، والبلاغة الكاملة، من وجوه تحقيق الكلام، وتحسينه وتدبيجه وتنميقه، وإذا فاتته هذه العلوم، أو كان ناقصا فيها، نقصت صناعته بقدر ما ينقص من ذلك". انظر: السابق، ج: ١، ص: ٢٣٤.

سبقت الإشارة إلى أن ما أطره القلقشندي في أصول المكاتبات دليل على أن صناعة الترسل لم تكن مجرد فن ذي بنية شكلية وأسلوبية؛ وإنما خطاب ذو مراتب تنسجم نصيًّا (أي في التحققات اللغويَّة) مع القيود المقامية والمقصديَّة (أي مع السياق الاجتماعي الذي أُنتجت فيه، والمعنى التواصلي). والقراءة المتأنية لأصول المكاتبات تستخلص عددًا من مبادئ تحليل الخطاب التي تثبت ما افترضه هذا البحث من إدراك العقلية العربية للوظيفة التواصلية للغة وما استقر حديثًا من مفاهيم نصيَّة وتداولية (كما سبق تفصيله) وخطابية (وهو ما أتناوله في هذا العنصر). وجدير بالإثبات أن النظرة العربية (من خلال أصول المكاتبات) تقارب النظرة الكليَّة للخطاب كما اقترحها فيركلوف Fairclough في المنهج الجدلي . العلائقي (Fairclough, ٢٠٠٣, ٢٠٠٩). إذ يرى فيركلوف أن اللغة لا تنتج اعتباطيًّا؛ وإنما هناك علاقة تأثير وتأثر (جدلية تفاعلية) بين اللغة والمجتمع؛ وبالتالي يركز تحليل الخطاب على انعكاسات العلاقات الاجتماعية من خلال التحققات اللغوية (في الخطاب). والخطاب من وجهة نظر فيركلوف يعمل على ثلاثة مستويات: ١) مستوى النص text (مكتوبًا أو منطوقًا)، ويركز التحليل في هذا المستوى (النصي) على الاختيارات التعبيرية والتركيبية، والمعايير النصية (ومنها المقصدية والتناص)، والحبك، والأغراض الدلالية المباشرة وغير المباشرة في النص؛ ٢) ومستوى الممارسة الخطابية discursive practices، أي عمليات إنتاج النص، وتلقيه، وتأويله في ضوء العوامل الخارجية التي تُسهم في فهمه وتفسيره؛ ٣) ثم مستوى الممارسات الاجتماعية–الثقافية sociocultural practices، أي السياق الخارجي الذي أُنتج فيه الخطاب. ومن خلال المقاربات النصية والتداولية لأصول المكاتبات في الموروث العربي تبيَّن أن نظرة العرب (الكليَّة) للغة تستوعب هذه المستويات إنتاجًا وتواصلا وتأصيلا.

ويكفي للتدليل على هذا الحكم (بالإضافة إلى ما سبق من أدلة على المستوى النصي والتداولي) أن أعرض بعض مبادئ تحليل الخطاب التي أشار إليها القلقشندي في أصول المكاتبات، ومنها: الاختيار التعبيري للألفاظ والألقاب والأدعية (كما أصَّل لها فيركلوف وهاليداي)، والمقاصد الجليلة أو البنية الكلية للمكاتبة (كما قدمها فان دايك)، وتمثيل الفاعل الاجتماعي (كما اقترحه فان لوفين)، والتصريح والتلميح أو التخفيف (كما تبنَّته وداك وريزيجل).

(١.٤.٤) الاختيارات التعبيرية لدى فيركلوف وهاليداي

سبقت الإشارة (في العنصر ٣) إلى أن القلقشندي قد نبَّه الكاتِب (منتج الخطاب) إلى إحدى المعارف الأساسيَّة في إنتاج خطاب الترسل، وهي معرفة مراتب الألفاظ ومواقعها (أي معرفة الفوارق الدلالية والأسلوبية بين الألفاظ المستعملة في المكاتبات)، كما نبَّه إلى مراعاة مقاصد المكاتبات وما يناسب كل مقصد من الألفاظ اللائقة[1].(فيتخيَّر الكاتب لكل موضعٍ ما يليق به من الألفاظ وبما يستحقُّه سياق الخطاب). وعدم إتقان هذه المعرفة (إدراك مراتب الألفاظ وما يُشاكِلها من مقاصدِ الخطاب) مما يُخِلُّ بصنعة الترسُّل والإنشاء. كما سبقت الإشارة إلى ما يتضمنه هذا التنبيه من تأصيل لمفاهيم المناسبة Relevance، والمقاميَّة Situationality، وتجنُّب اللبس Explicitness وهي مفاهيم وثيقة الصلة بالوظيفة الاتصالية للغة، وتحليل العلاقة بين البنية الشكليَّة من ناحية وما تحمله من وظائف تداولية وخطابية من ناحية ثانية؛ بما يحقق التماسك التداولي Pragmatic coherence من خلال تنوع الاختيارات التعبيرية Lexical choices. ولا يقتصر مفهوم الاختيار التعبيري (في خطاب الترسل العربي) على اختيار الألفاظ المناسبة للمقصد والمقام فحسب؛ وإنما يتسع ليشمل اختيار الأدعية المناسبة لمراتب مقام المكتوب إليه من أرباب المناصب الجليلة ومن دونهم، كما

(١) راجع: الأصل الرابع، ص: ٢٦٨، والأصل السابع، ص: ٢٨٢.

وضعوا قيودًا تداولية محكَمة لطرائق الدعاء في المكاتبات كتجنُّبُ ما كُرِهَ من الأدعية مما لا طائلَ منه، والدعاء لكل حالةٍ من حالات المكتبات بما يدلُّ عليها؛ وفاءً بحق الصنعة وتحقيقًا للغرض التأثيري من الخطاب. كما يتحقق مفهوم الاختيار التعبيري في التلقيب باختيار ما يناسب رتبةَ المُرسِل (المكتوب عنه) والمخاطَب (المكتوب إليه) من الألقاب الأصول. ووضعوا قيودًا تداولية جرت عليه سُنَّة المكاتبات في التلقيب، كعدم الإكثار من نعوت السلطان في الكتابةِ إليه مثلًا . أما في الكتابةِ عنه فيكون إكثار النعوت من قبيل تشريف السلطان للمكتوب إليه، وكتَخيُّر الألفاظ المناسبة للعتبات العالية ومحل الشرف.

وتأسيسًا على هذا، يمكن القول بأن نظرة العرب لمفهوم الاختيار التعبيري مرتبطةٌ بمفهوم المقاميَّة (المناسَبة). أو بعبارة أخرى، لم يكن اهتمام العرب بالاختيارات التعبيريَّة (في خطاب الترسل) من قبيل الاهتمام بالمحسنات اللفظية أو البنية الشكليَّة؛ وإنما من قبيل مراعاة السياق الاجتماعي؛ بما يحقق كمال إفادة المعنى التواصلي، وبما يمثل قَيْدًا تداوليًّا في التعبير اللغوي على مستوى البنية النصيَّة من ناحية، وعلى مستوى مراتب الخِطاب من ناحية أخرى. ولعلَّ هذا المبدأ (الاختيار التعبيري) يقارب . إن لم يكن يتطابق مع . ما بات مستقرًّا في مناهج تحليل الخطاب حديثًا، كما اقترحه مايكل هاليداي (Halliday, ١٩٧٨) في منهج اللغويات الوظيفية Functional Linguistics Approach من أن الاختيارات التعبيرية (معجمية أو تركيبية) lexico-grammatical patterns ليست اختيارات اعتباطية في الخطاب؛ "وإنما يتم انتقاؤها بصورة واعية مقصودة تعكس المعاني والرسائل الخطابية التي يتبناها أو يقصدها منتج الخطاب"[(١)]. ثم تبنَّى هذا المبدأ فيركلوف (Fairclough, ٢٠٠٣, ٢٠٠٩) في المنهج الجدلي . العلائقي في تحليل الخطاب A dialectical-relational approach الذي

(١) صفوت علي صالح، لسانيات المدونة، مرجع سابق، ص ٧٥.

ينطلق من العلاقة التفاعلية بين التعبير اللغوي في الخطاب والسياق الاجتماعي، وأن أولى مراحل تحليل الخطاب (وفق هذا المنهج) تركز على التحققات اللغوية على مستوى النص بما فيها الاختيارات المعجمية.

(٢.٤.٤) المقاصد الجليلة ومفهوم البنية الكليَّة لدى فان دايك

إذا كانت البنية النصيَّة تتجسد في نمط النص أو نسقه (أو ما أطلق عليه فان دايك مصطلح المخطَّط Schema إشارةً إلى نوعيَّة النص من حيث البنية الشكلية)؛ فإن البنية العليا تتمثل في الإرهاص بمضمون النص وموضوعه الذي يددور حوله. ومن ثمَّ، توصف البنية العليا (الكبرى) بالتجريديَّة؛ لأنها ليست ذات نسق معين (كالعنوان مثلا) وإنما تكمن في ثنايا النص فتُدْرَك ضمنيًّا، وإن كانت محمولةً في بعض الجمل والعبارات. وبعبارة أخرى، يمكن وصف البنية النصيَّة بالبنية السطحية (بمفهوم تشومسكي) أما البنية الكبرى فتمثل البنية العميقة التي يُعبَّر عنها سطحيًّا بأساليب واختيارات تعبيريَّة متنوعة. وتطبيقًا لهذا التمييز، يمكن النظر لمطالع المكاتبات ومقدماتها ومتونها وخواتيمها على أنها عناصر للبنية النصية؛ أما المقاصد الجليلة (بتعبير القلقشندي، والتي تقارب ما عبَّر عنه دي بوجراند بمعيار "المقصدية") فيُنظَر إليها على أنها البنية الكبرى للمكاتبة. فقد نبَّه القلقشندي إلى أهمية تصدير المكاتبة المشتملة على المقاصد الجليلة بمقدمة؛ تأسيسا لما يأتي به في المكاتبة[١]. وهو ما يتحقَّق أسلوبيًّا بأن يستهلَّ المكاتبة بما يدل على مقصدها الجليل (أو المعنى الكلي). فمن أمارات استيفاء الصَّنعة حقَّها أن يُبسَط للمكاتبة بعتبةٍ مائدةٍ لمقاصدها وأغراضها؛ فيُعلَم من مَبدأ الكتاب ما المرادُ منه، وليكونَ ذلك بساطًا لما يريد القول فيه، وحجة يستظهر بها السلطان؛ لأن كل كلام لا بد له من فَرش يُفرش قبله ليكون منه بمنزلة الأساس من البنيان بتعبير القلقشندي نفسه[٢]. وهنا تكمن الوظيفة المقصدية للنص والوظيفة الخطابية

(١) راجع: الأصل الثاني، ص: ٢٦٥، والأصل الثالث، ص: ٢٦٧.
(٢) صبح الأعشى، ج: ٦، ص ٢٦٥، ص: ٢٦٨، بتصرف.

للمطالع بما يقارب ما اقترحه فان دايك (van Dijk, ٢٠٠٨) في منهجه الاجتماعي الإدراكي Sociocognitive approach من مفهوم البنية الدلالية الكبرى Semantic Macrostructures؛ التي تُبلور التيمات الخطابية. ومن ثمَّ يرى فان دايك أن "جوهر التحليل النقدي للخطاب هو التحليل الواضح والمنظَّم للبنى والإستراتيجيات على المستويات المختلفة للنص"(١)؛ بما فيها من البنى الدلالية الكبرى التي تسهم في تفسير البنى الداخلية (بما فيها الاستعمال اللغوي). بإدراكها في سياقها الاجتماعي الذي أُنتجت فيه.

(٣.٤.٤) التلقيب وتمثيل الفاعل الاجتماعي لفان لوفين

نبَّه القلقشندي إلى مراعاة مقام المُرسِل (المكتوب عنه) والمخاطَب (المكتوب إليه) باختيار ما يناسب رتبتَه وما يليق بمقامه من الألقاب الخطاب ومعرفة ما يتبع كل لقب من النعوت التابعة، فيقرن كلَّ لقبٍ بما يناسبه منها (٢). وقد سبقت الإشارة إلى أن التلقيب من طرائق تحقق المقاميَّة في المكاتبة بمراعاةُ رتبة المكتوب عنه من الرؤساء والنظراء والعلماء والوكلاء، وأنه التلقيب من وسائل التأدب، ومن الوسائل الخطابية لتعزيز القوة الإنجازية في المكاتبات الإنشائية؛ لما يحمله من معنىً تأثيريٍّ Affective meaning في المتلقي من ناحية، وما يحمله من تأثيرات عوامل السُّلطة Power، والمقام التواصلي Situation، والسياق الاجتماعي Social context في إنتاج النص (أو الخطاب) المكاتباتي. وفي إشارة القلقشندي لطرائق التلقيب ووظائفه التداولية والخطابية ما يقارب إشارة فان لوفين (van Leeuwen, ١٩٩٦) في منهج تمثيل الفاعلين الاجتماعيي Social Actors Representation إلى الإستراتيجيات التي يمكن توظيفها في الخطاب لتمثيل الفاعل الاجتماعي (الشخص الطبيعي أو الاعتباري). ومن

(١) صفوت علي صالح، لسانيات المدونة، مرجع سابق، ص ٧٦.

(٢) راجع: الأصل السادس، ص: ٢٨١، والأصل الثامن، ص: ٢٨٣، والأصل التاسع، ص: ٢٨٨.

هذه الإستراتيجيات (وهو ما يهمنا مقاربته بالتلقيب في أصول المكاتبات) تمثيل الفاعل الاجتماعي . كما يوضح فان لوفيين . بالإشارة إليه بوظيفته Functionalisation من خلال التلقيب بما يدل على دوره الوظيفي وبممارسته الاجتماعية، أو بتمثيله بهويته Identification بتلقيبه بما يشير إلى الطبقة الاجتماعية التي ينتمي إليها، أو بالتمثيل العلائقي Spatialization من خلال تلقيب الفاعل الاجتماعي بالمكان الذي تربطه به علاقة غالبة. وقد بات نهجًا في التحليل النقدي للخطاب أن تستقصي الطرائق التي يمكن من خلالها تمثيل الفاعلين الاجتماعيين وتلقيبهم في الخطاب؛ بغرض استنباط الكيفية التي توظَّف بها الممارسات الاجتماعية في الخطاب من خلال طرائق تمثيل الأشخاص.[١]

(٤.٤.٤) تخطِّي التصريح إلى التَّلويح ومبدأ التخفيف لوداك وريزيجل

أشار القلقشندي إلى أن من المقاصد ما لا يَحسُن التعبير عنها تصريحًا؛ فنبَّه الكاتِبَ إلى "أن يتخطى التصريح إلى التلويح والإشارة إذا ألجأته الحال إلى المكاتبة بما لا يجوز كشفه وإظهاره على صراحته مما في ذكره على نصه هتك ستر، أو في حكايته اطراح مهابة السلطان، وإسماعه ما يلزم منه إخلال الأدب في حقه"[٢]. وهو ما يقارب ما اقترحته روث وداك Wodak وريزيجل Reisigl في المنهج التاريخي في تحليل الخطاب Discourse-historical Approach (٢٠٠١, ٢٠٠٩)؛ حيث اقترحا أربعة مستويات لتحليل الخطاب: هي الاستعمالات اللغوية في النص، وعلاقات التناص وتضافر الخطابات، والسياق الاجتماعي الذي أُنتج فيه الخطاب، ثم استدعاء الوقائع التاريخية في الخطاب. كما يقترحان عددًا من إستراتيجيات تحليل الخطاب، من بينها . كما يوضح بول

(١)van Leeuwen, T. (١٩٩٦). 'The Representation of Social Actors.' In *Texts and Practices: Readings in Critical Discourse Analysis*, ed. by Carmen Rosa Caldas-Coulthard & Malcolm Coulthard, ٣٢-٧٠, selected ٣٢-٣٦, ٣٦-٤٢. London: Routledge, P: ٣٥.

(٢) السابق، ص: ٢٨٣.

بيكر (Baker, ٢٠٠٨: ٢٨٢) . إستراتيجية التخفيف أو التسكين Mitigation strategy، التي يلجأ إليها منتج الخطاب لتخفيف الأحداث والأخبار والوقائع السلبية. كما أشار فان دايك إلى أن أسلوب التلميح Implicitness يمثل إحدى طرائق تحليل الخطاب على مستوى التعبير اللغوي في النص، وعلى مستوى البنية الكلية للخطاب، في مقابل أسلوب التصريح Explicitness. ويرتبط أسلوب التلميح (أو التلويح . بتعبير القلقشندي) بمظهر التلطُّف أو التأدُّب Politeness وهو أحد مظاهر التحليل التداولي والخطابي؛ حيث يلجأ منتج الخطاب إلى التعبير توريةً وتلميحًا عما لا ينبغي حكايته صراحةً أو ما يُخلُّ بواجب الأدب والتوقير في حق المكتوب إليه . كما بيَّن القلقشندي في أصول المكاتبات.

لعل هذه المقاربات تبلور نظرة العرب (في المكاتبات الإنشائية) للوظيفة التواصلية للغة التي تتحقق من خلال نظام متكامل من البنى التعبيرية على مستوى النص، والأغراض الإفهامية والتأثيرية على مستوى الخطاب. وهذه النظرة الكلية التكاملية بمستوييها (النصي والخطابي) تثبت أن ما جرت عليه سُنة العرب في المكاتبات الإنشائية (كما أجملها القلقشندي في أصول المكاتبات) يتجاوز ما قد يظنه البعض من أن صناعة الترسُّل مجرد صنعة لها مقوماتها الفنية؛ ومن ثَمَّ تكمن أهميتها في استقراء هذه المقومات البديعة من حيث البنية الشكلية أو من حيث الجوانب البيانية والبلاغية والمحسنات اللفظية. لكنَّ استقراء أصول هذه الصنعة ومقاربتها باتجاهات التفكير اللغوي الحديث . يثبت أن نظرة العرب للغة تتجاوز حدود المظاهر الفنية إلى مستوى التفكير المنهجي لكيفية عمل النظام اللغوي ووظيفته التواصلية على المستويات اللغوية المتدرجة نصيًّا وتداوليًّا وخطابيًّا؛ بما يحقق إفادة المعنى المقصود (تعبيرًا)، ثم كمال الإفادة (تأثيرًا)، ثم التحسين والتزيين (لاستيفاء حق الصنعة).

**

الخاتمـة

حجيَّة أصول المُكاتبات على ثراء الموروث العربي بأبعاد المناهج اللغوية الحديثة إلى أي مدًى يمكن أن يفترض المرء أن الموروث العربي يزخر بنظريةٍ لغوية عربية تقارب النظرية اللغوية الغربية في نضجها ووضوحها؟ أم أن هذه الفرضية لا تكاد تخرج عن إطار التحمس للتراث العربي، ومن ثَم لا تكاد تصمد عند الموازنة بما استقرَّ في النظرية اللغوية الغربية مصطلحيًّا ومنهجيًّا وتطبيقيًّا؟ هذه إحدى الجدليات التنظيرية التي لم تُحسم بعد في التفكير اللغوي؛ فلكلٍ من هذين الاتجاهين أنصاره ودلائله. فهناك مَن يرى أن التبني المطلق للنظرية الغربية في الدرس اللغوي والنقدي إنما هو من قبيل التَّبَعيَّة والافتتان الحداثي المزعوم الذي ينطوي على تنكُّر للموروث العربي، وعدم دراية بما يزخر به من أفكار لم تلقَ حظها من التبني والتداول والتطوير ما حظِيَت به الأفكار الوافدة إلى الدرس اللغوي العربي. ويكفي دليلًا على هذا . من وجهة نظر أنصار هذا الاتجاه . ما يستوقف الباحث في التراث العربي من قضايا ومناهج ومصطلحات لغوية تُثبت مدى إدراك العقلية العربية لأصول التفكير اللغوي، ومنها . على سبيل المثال . مصطلحات النَّظم والمقام، وثنائية اللفظ والمعنى، وتعريف "اللغة" بوظيفتها التعبيرية التواصلية، وغيرها من القضايا والأفكار التي تزخر بها الأعمال اللغوية والبلاغية والأصولية.

وعلى الجانب الآخر، هناك مَن يرى أن مثل هذه الأطروحات لا تعدو أن تكون مجرد أوراق متناثرة في مجالات الفكر العربي القديم، وأن هذا التناثر أفقدها ما يميز نظائرها في الفكر الغربي الحديث من الدقة العلمية والتطور المنهجي، الأمر الذي لا يجعلها قابلة للتطبيق بديلًا عن التيَّارات الحديثة في تحليل الكيفية التي تعمل بها اللغة؛ ومن ثّم فنحن . من وجهة نظر هؤلاء . أمام أفكارٍ أو إلماحات لا ترقى أن يُطلق عليها نظرية لغوية متكاملة (أو متنامية).

والحق أنه لا تزال هناك فجوة نظرية منهجية بحثية صنعناها بأنفسنا حينما انصرفنا عن السؤال الكبير الذي يتمحور حوله علم اللغة بكل مناهجه ونظرياته

ومنطلقاته، وهو: كيف يعمل النظام اللغوي؟ إن الإجابة عن هذا السؤال أو بالأحرى الانشغال به والاشتغال فيه ينقلنا من دائرة التنظير القائم على الحدس إلى دائرة التطبيق والاستعمال القائم على الدليل، وينقلنا من دائرة التبعية المنهجية إلى دائرة الوضع المنهجي، ومن دائرة الترميم والاستلاف إلى دائرة الخلق والإبداع. فعدم الانشغال بالكيفية التي يعمل بها النظام اللغوي (العربي) دَفَعَنا من حيث لا ندري إلى الانشغال بإحدى قضيتين كلتاهما بعيدة عن غاية البحث اللغوي المعاصر (عبَّر عنهما د. عبد العزيز حمودة في كتابيه "المرايا المقعرة"، و"المرايا المحدَّبَة")؛ فَصِرنا أمام فريق يؤمن بأن لدينا نظرية لغوية عربية مكتملة، وكل ما عداها من وافدٍ هو مجردُ اجترار لمفاهيمَ ومصطلحاتٍ لغوية تراثية وضَعها أسلافنا اللغويون والأصوليون والبلاغيون. وفريق يرى أن ما يزخر به الموروث اللغوي والبلاغي ما هو إلا إرهاصات لم تبلغ من النضج ما يُكوّن نظريةً لغوية، وأن الوافد الأجنبي من مناهج ومفاهيم وتنظيرات ينبغي أن يكون هو المنطلق والسبيل والغاية في آن واحد. وإذا كانت هذه الثنائية هي الغالبة عمليًّا في الدرس اللغوي، ولكل من طرفَيْها النصيب الأكبر من المؤيدين والأنصار؛ إلا أن هناك فريقًا ثالثًا يرى أن النظرية اللغوية . بالمفهوم الكلي للنظرية . لا بد أن تبلغ حدَّ النضج والاستقرار من حيث المفاهيم العلمية، وشمولية المستويات والقضايا اللغوية، وتعدد المنهجيات؛ ومن ثَم ينبغي التعامل مع الوافد وتطويعُه للنظام اللغوي العربي، مع عدم إغفال ما أشار إليه التراث العربي من أحكام ومبادئ يمكن الاستناد إليها في تلقي المناهج اللغوية الحديثة؛ فيجتمع للبحث اللغوي أصالة التفكير التراثي وحداثة المناهج المعاصرة.

ومن هنا تأتي أهمية هذا البحث في استقراء أصول المكاتبات كما أجملها القلقشندي في صبح الأعشى؛ للوقوف على ما تتضمنه من ملامح التفكير اللغوي الحديث نصيًّا وتداوليًّا وخطابيًّا. وقد أثبت هذا الاستقراء مدى ثراء الموروث

العربي (من خلال خطاب الترسُّل) بمبادئ عمل النظام اللغوي (على مستوى إنتاج النص)؛ لأداء الوظيفة التواصلية للغة (على مستوى تداولية الخطاب). وبعبارة أخرى، يستوقف المدقق في التراث العربي ما يمكن الاحتجاج به على إدراك العقلية العربية (قديمًا) لمبادئ الاتجاهات الحديثة في التفكير (أو الدرس) اللغوي على المستوى الأدنى من التحليل (البنية النَّصِّيَّة)، وعلى المستوى الأعلى (الوظيفة التداولية والطرائق الخِطابية). فعلى مستوى بنية النص، يمكن إجمال النتائج الكلية من هذه المقاربات في: (١) أن مفهوم **المقاميَّة** في تصور العرب القدامى مفهومٌ سياقيٌّ (اجتماعيٌّ) يقتضي تحقُّقاتٍ لغوية تسهم في أداء المعنى التواصلي على مستوى النص، ومنها: **الاختيار التعبيري** (مراتب الألفاظ)، وفي **إيراد الأدعية** المناسبة (لمراتب المخاطَب، ومقصِد المكاتبة)، وفي **التلقيب** (تخيُّر ما يليق بالمكتوب له من الألقاب المناسبة)، وفي **التناص** (إيراد آيات من القرآن أو أبيات من الشعر أو الأمثال ونحوها في المكاتبة)، وفي **الاقتصاد اللغوي** (الإيجاز والإطناب بما يُناسب المقام) . بما يحقق الغاية التواصلية. كما يبرهن هذا التصور على إدراك العرب القدامى **لخصائص النص** كما اقترحها دي بوجراند ودريسلر ، وهي: **الكفاءة** (في الاقتصاد التعبيري)، **والفعاليَّة** (في تحقيق الهدف التواصلي)، **والملاءمة** (في توافق النص مع سياق الحال).

(٢) أن مفهوم العرب **للأدوات** (وهي الأمور المعرفية اللازمة للكاتب وكيفيات توظيفها وتصريفها) يقارب ما اصطلح عليه اللغويون حديثًا إستراتيجيات إنتاج النص، والمعايير الاتصالية العامة. وإن تميَّزت نظرة العرب بحصر المعارف الموسوعية التي يحتاجها الكاتب (منتج النص)، وبتفصيل كيفيَّة توظيفها نصيًّا وتداوليًّا في السياق ؛ مما يقف دليلا على إدراك العقلية العربية لمفهوم النص إنتاجًا واتصالًا وتلقيًا. كما أن التصور العربي للنصِّ يوافق ما ذهب إليه هاليداي من أن النصَّ وحدة معنى وليس وحدة شكل (في إشارة إلى التحول من نحو النص

إلى دلالة النص)؛ ولعل هذا الفهم لطبيعة عمل النص هو ما حمَلَ اللغويين إلى تطوير نماذج التحليل النصي؛ بحيث تتجاوز محدوديَّة (البنية التركيبية) بإضافة أبعاد دلالية (تتعلق بمعنى النص) وتداولية (تتعلق بالمتلقي) لاستيفاء التحليل النصِّي جوانب الوظيفة التواصلية: الكفاءة والفعاليَّة والملاءمة.

(٣) أن أصول المكاتبات تتضمن عددًا من المبادئ التداولية التي تقارب نظرية الملاءمة وقواعد مبدأ التعاون لجرايس، و أفعال الكلام (الكتابية) وقوتها الإنجازية كما أصَّل لها أوستين وسيرل، وأفعال الكلام الكبرى لفان دايك، ومبدأ التأدب والتلطُّف كما عرضه جيفري ليتش. كما أنها وَسِعت الأغراض التواصلية المختلفة في المكاتبات، ووسائل تعديل القوة الإنجازية في التعبير عن المقاصد بما يحقق الغرض الخطابي متجاوزًا إفادة المعنى (الإفهام) إلى كمال الإفادة (التأثير) في بنيةٍ نصيَّةٍ بديعةِ الصنعة (من التحسين والتزيين).

(٤) أن النظرة العربية (للخطاب) تقارب ما اقترحه فيركلوف من أن اللغة لا تنتج اعتباطيًّا؛ وإنما هناك علاقة تفاعلية بين اللغة والمجتمع؛ ومن ثَمَّ، فالتحليل النقدي للخطاب يركز على انعكاسات العلاقات الاجتماعية من خلال التحققات اللغوية على مستوى النص، وعلى مستوى الممارسة الخطابية، ثم مستوى السياق الخارجي الذي أُنتج فيه الخطاب. ومن مبادئ تحليل الخطاب التي تضمنتها أصول المكاتبات: الاختيار التعبيري للألفاظ والألقاب والأدعية (كما أصَّل لها فيركلوف وهاليداي)، والمقاصد الجليلة (أو البنية الكلية للمكاتبة كما قدمها فان دايك)، وطرائق تمثيل الفاعل الاجتماعي (كما اقترحه فان لوفين)، وإستراتيجية العدول عن التصريح والتلميح أو التخفيف (كما تبنَّته وداك وريزيجل).

(٥) أن هذه النظرة الكلية التكاملية بمستوييها (النصي والخطابي) واستقراء أصول المكاتبات ومقاربتها باتجاهات التفكير اللغوي الحديث . يثبت أن نظرة العرب للغة تتجاوز **حدود البنية الفنية وسماتها** إلى مستوى **التفكير المنهجي**

لكيفية عمل النظام اللغوي ووظيفته التواصلية على المستويات اللغوية المتدرجة نصيًّا وتداوليًّا وخطابيًّا؛ بما يحقق إفادة المعنى المقصود (تعبيرًا)، ثم كمال الإفادة (تأثيرًا)، ثم التحسين والتزيين (لاستيفاء حق الصنعة).

ويحسُن في ختام هذا البحث أن أُقرَّ بأنني لم أوسع كل القضايا بحثًا واستقراءً؛ وإنما اكتفيت بما يشبه حسو الطير مما يحقق الغرض من هذا البحث، فالإحاطة بكل شيء غاية لا تُدرك. كما يَحسُن أن أقترح بعض إضاءات للبحوث المستقبلية في إطار إعادة قراءة الموروث العربي واستجلاء مكنونه من منهجية التفكير ومعايير التقعيد والتنظير وطرائق التحليل والاستعمال، ومنها: (١) دراسة النموذج العربي في بنية النص ومعايير النصيَّة ومقاربته بالنماذج المقترحة حديثًا، (٢) تحليل وسائل تعديل القوة الإنجازية للأفعال الكتابية في المكاتبات الإنشائية، (٣) استقراء آليات الحجاج في الأجوبة على الرسائل والمطالب الواردة للدواوين السلطانية، (٤) تحليل البنى الكلية للتوقيعات على المكاتبات الصادرة عن الملوك والسلاطين والولاة، (٥) دراسة الكفاءة العلمية لطرائق العرب في الوضع المصطلحي والتعاريف، (٦) دراسة طرائق التلقيب لتمثيل الفاعل الاجتماعي في الموروث العربي، (٧) تحليل الدلالة القانونيَّة في مكاتبات العهود والمواثيق، (٨) دراسة طرائق الاقتصاد اللغوي في التقاليد والمناشير، (٩) دراسة الفوارق الدلالية للألفاظ التي يقوم بعضها مكان بعض، (١٠) دراسة ما لابدَّ من النظر فيه والتحرُّز منه في المكاتبات الإنشائية.

مراجع البحث

١) ابن الأثير، المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، قدَّمه وعلَّق عله: أحمد الحوفي وبدوي طبانة، دار نهضة مصر، القاهرة، د.ت.

٢) أحمد بن علي القلقشندي، صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، دار الكتب المصرية بالقاهرة، ١٩٢٢.

٣) أحمد عزت عبد الكريم، أبو العباس القلقشندي وكتابه "صبح الأعشى"، تأليف نخبة من الأساتذة، المكتبة العربية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٧٣.

٤) الجاحظ، البيان والتبيين، تح: عبد السلام هارون، ط الخانجي، القاهرة، ١٩٦٨.

٥) حسن الباشا، الألقاب الإسلامية في التاريخ والوثائق والآثار، الدار الفنية للنشر، مصر، ١٩٨٩.

٦) ابن خلدون، ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، تح: خليل شحادة، دار الفكر، بيروت، ١٩٨٨.

٧) روبرت دي بوجراند، النص والخطاب والإجراء، ترجمة: تمام حسان، عالم الكتب، القاهرة، ١٩٩٨.

٨) سعيد بحيري، علم لغة النص: المفاهيم والاتجاهات، لونجمان، القاهرة، ١٩٩٧.

٩) سعيد بحيري، اتجاهات لغوية معاصرة في تحليل النص، مجلة علامات، ج: ٣٨، ص: ١٣٣ – ٢٢٢، ديسمبر ٢٠٠٠.

١٠) شهاب الدين الحلبي، حُسن التوسُّل في صناعة الترسُّل، الطبعة الوهبية، مصر، ١٨٨٠.

١١) صفوت علي صالح، لسانيات المدونة وتطبيقاتها البحثية على اللغة العربية، عالم الكتب، ٢٠١٩.

١٢) عبد العزيز حمودة، المرايا المقعرة: نحو نظرية نقدية عربية، المجلس الوطني للثقافة والفنون والأدب، الكويت، ٢٠٠١.

١٣) عبد اللطيف حمزة، القلقشندي في كتابة صبح الأعشى: عرض وتحليل، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والنشر، وزارة الثقافة، القاهرة، ١٩٧٧.

١٤) علي ابن شيت، معالم الكتابة ومغانم الإصابة، تح: الخوري قسطنطين، المطبعة الأدبية، بيروت، ١٩١٣.

١٥) علي بن خلف، مواد البيان، تح: حاتم الضامن، دار البشائر، سورية، ٢٠٠٣.

١٦) فايز فلاح القيسي، أدب الرسائل في الأندلس، في القرن الخامس الهجري، دار البشير، الأردن، ١٩٨٩.

١٧) فلوفجانج هاينه مان، وديتر فيهفجر، مدخل إلى علم لغة النص، ترجمة وتعليق: سعيد بحيري، زهراء الشرق، القاهرة، ٢٠٠٤.

١٨) محمد العبد، النص والخطاب والاتصال، الأكاديمية الحديثة للكتاب الجامعي، القاهرة، ٢٠١٤.

١٩) محمد العبد، تعديل القوة الإنجازيَّة: دراسة في التحليل التداولي للخطاب، مجلة فصول، ع: ٦٥، ٢٠٠٥.

٢٠) محمد عبد الغني حسين، كتاب صبح الأعشى بمناسبة صدور فهارسه، مقالة بجريدة قافلة الزيت، عدد: ١٠، مجلد: ٢٢، أرامكو، المملكة العربية السعودية، ١٩٧٤

٢١) محمد عبد الله عنان، أبو العباس القلقشندي وكتابه "صبح الأعشى"، ضمن كتاب أبو العباس القلقشندي وكتابه "صبح الأعشى"، تأليف نخبة من الأساتذة، المكتبة العربية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٧٣.

٢٢) محمود عكاشة، النظرية البراجماتية اللسانية (التداولية): دراسة المفاهيم والنشأة والمبادئ، مكتبة الهلال، القاهرة، ٢٠١٣.

٢٣) محمود نحلة، نحو نظرية عربية للأفعال الكلامية، مجلة الدراسات اللغوية، مج: ١، ع: ١، ١٩٩٩.

٢٤) مسعود صحراوي، التداولية عند العلماء العرب، دراسة تداولية لظاهرة الأفعال الكلامية في التراث اللساني العربي، دار الطليعة، بيروت، ٢٠٠٥.

٢٥) نعمان بو قرة، نحو نظرية لسانية عربية للأفعال الكلامية: قراءة استكشافية للتفكير التداولي في المدونة اللسانية التراثية، مجلة اللغة والأدب، جامعة الجزائر، ع: ١٧، ٢٠٠٦.

٢٦) أبو هلال العسكري، الصناعتين، تح: علي البجاوي، ومحمد أبي الفضل إبراهيم، المكتبة العنصرية، بيروت، ١٤١٩هـ.

٢٧) Baker, P., Gabrielatos, C., Khosravinik, M., Krzyzanowski, M., McEnery, T., and Wodak, R. (٢٠٠٨). A useful methodological synergy? Combining critical discourse analysis and corpus linguistics to examine discourses of refugees and asylum seekers in the UK press. *Discourse and Society*, ١٩ (٣), ٢٧٣-٣٠٦.

٢٨) Fairclough, N. (٢٠٠٣). *Analysing Discourse: Textual Analysis for Social Research*. London.

٢٩) Fairclough, N. (٢٠٠٩) "*A dialectical-relational approach to critical discourse analysis in social research*". In R. Wodak and M. Meyer (eds), Methods of Critical Discourse Analysis. ٢nd edn. London: Sage, pp. ١٦٢-١٨٦.

٣٠) Halliday, M. (١٩٧٨). *Language as social semiotic: The social interpretation of language and meaning*. London: Edward Arnold.

٣١) Leech, G. (١٩٨٣), *Principles of Pragmatics*, London, Longman.

٣٢) Reisigl, M. and Wodak, R. (٢٠٠٩) 'The Discourse-Historical Approach (DHA)'. In R. Wodak and M. Meyer (eds), *Methods of Critical Discourse Analysis*. ٢nd edn. London: Sage, pp. ٨٧-١٢١.

٣٣) Reisigl, M., & Wodak, R. (٢٠٠١). D*iscourse and Discrimination: Rhetorics of Racism and Antisemitism*, Routledge London.

٣٤) Van Dijk, T. (١٩٨٠), *Text and Context: Exploration in the Semantics and Pragmatics of Discourse*, London, Longman.

٣٥) Van Dijk, T. A. (٢٠٠٨). *Discourse and Context: A Sociocognitive approach*. Cambridge.

٣٦) Van Leeuwen, T. (١٩٩٦). 'The Representation of Social Actors.' In *Texts and Practices: Readings in Critical Discourse Analysis*, ed. by Carmen Rosa Caldas-Coulthard & Malcolm Coulthard, ٣٢-٧٠, selected ٣٢-٣٦, ٣٦-٤٢. London: Routledge.

٣٧) Van Leeuwen, T. (٢٠٠٨). *Discourse and practice : new tools for critical discourse analysis*. Oxford: Oxford University Press.

٣٨) Yule. G. (٢٠١٠). *The Study of Language*, Cambridge University Press, Cambridge.

* * *